

البادية النجدية

المؤلف

محمد أبو حمرا

الطبعة الاولى

١٤٢٤هـ

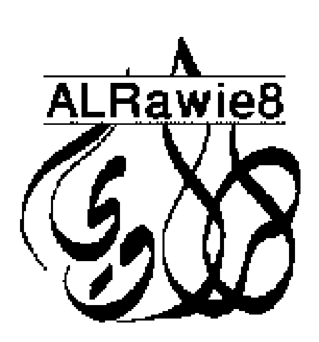
Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

البادية النجدية

محمد ناصر أبو حمراء

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ح) محمد بن ناصر أبو حمرا ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو حمرا ، محمد بن ناصر

البادية النجدية / محمد بن ناصر أبو حمرا .- الرياض ،

١٤٢٤هـ

١٧٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٧ - ٨٤٥ - ٤٣ - ٩٩٦٠

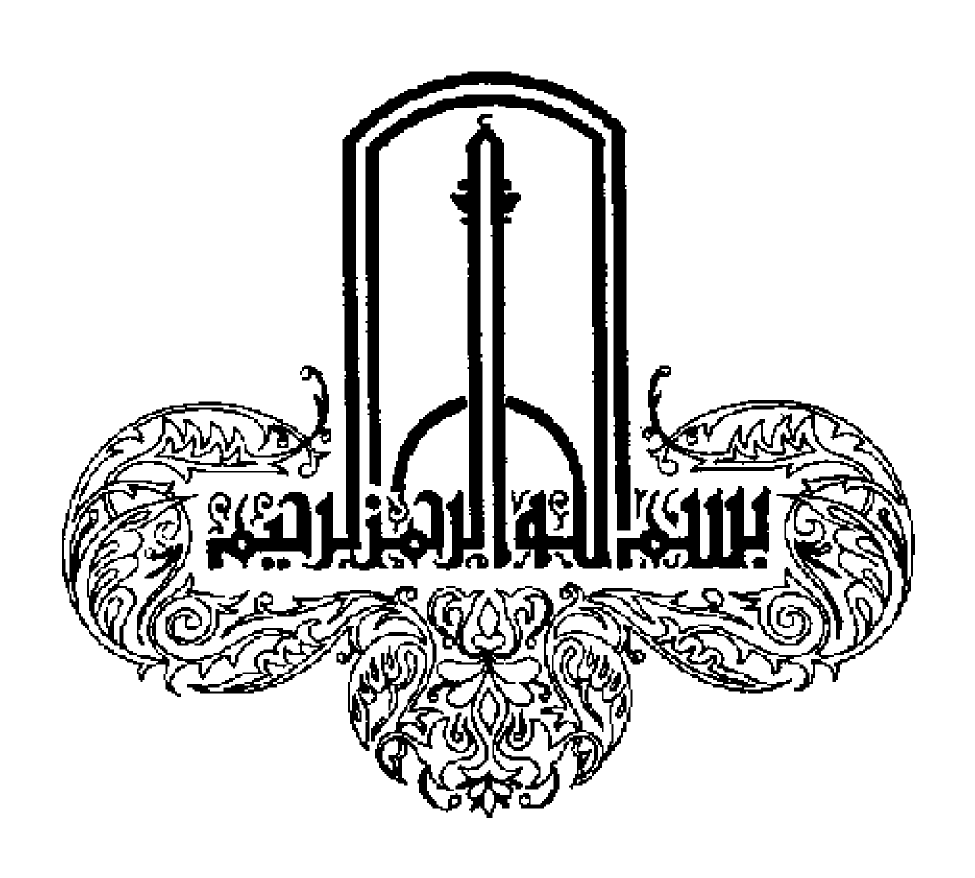
١ نجد تاريخ العصر الحديث

٢-نجد - العادات والتقاليد أ العنوان

ديوي ٩٥٣,١١ ١٤٢٤/٨١٢

رقم الايداع: ١٤٢٤/٨١٢

ردمك: ٧-٨٤٥-٤٣-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كنت قد قــرأت كتباً كثيرة تتعــلق بالبادية؛ ويتحدث مؤلفوها عن العادات والتقاليد وغيرها مما يتعلق بحياة البادية؛ إلا أنهم كانوا يأخذون نماذجهم من غير البادية النجدية؛ والتي هي قد تختلف في عاداتها [قليلاً] عن بادية وسط الجزيرة العربية؛ أو بالدقة بادية نجد؛ تلك الكتب وغيرها أوحت لي بأن أكتب عن البادية في وسط الجزيرة العربية بالذات؛ لأنها هي البادية التي هي أكثر اتصالاً وتجذراً بالقبائل العربية الأولى في الجزيرة العربية؛ بل تمثل العرب كافة؛ لسبب واحد وهو أن عاداتهم متفقة مع عادات العرب الخلص قبل وبعد الإسلام؛ وهم امتداداً لهم؛ وخاصة العادات التي أقرها الإسلام؛ وبقيت متأصلة مطبقة من لدنهم إلى اليوم؛ مثل الكرم والنخوة والشهامة وغيرها من أخلاق العرب التي هي هنا وفي البوادي العربية الأخرى. بقي أن أضيف أن أغلب ما كتبته هنا هو من مصادر شفاهية؛ أو من معلوماتي الخاصة؛ بحكم معايشتي للحياة وللرعيل الذي مضى من البادية؛ الذين شاهدتهم وعاصرتهم وسمعت منهم ... وأعرف جيداً أن بحثاً مثل هذا سيكون فيه الكثير من الهنات التي هي سمة كل بحث أولي؛ ثم كنت

أرى أنه من الضروري رصد حياة البادية اليومية والتركيبة الإجتماعية؛ وغيرها من المواضيع المتعلقة بحياتهم وعاداتهم؛ بيد أن المشكلة التي تواجه الباحث في مثل هذا الموضوع هي أن كبار السن الذين كانوا يعرفون ويتحدثون على السجية؛ انقرضوا وتحضر نسلهم؛ بل نسي أغلبهم مفردات حياته السابقة ولغتها.

والله أسأل التوفيق

الإنسان والحياة

هل بدأ الإنسان بدوياً أم حضرياً ؟.
وبمعني آخر؛ هل أصل الحياة البداوة أم الحضارة ؟
ولتبسيط صيغة السؤال أيضا نقول:

هل الإنسان حينما وجد على الأرض كان يمارس حياة البداوة في تصرفه وطريقة عيشه أم حياة الحضارة؟.

اختلف الباحثون في الحضارات حول هذا السؤال؛ الذي يجيب عليه كل منهم حسب اعتقاده أو ما يقوده إليه تفكيره؛ لكن أحداً منهم لم يكن على يقين بما يراه؛ بالرغم من ميل أكثرهم إلى أن الإنسان جاء بدوياً.

البداوة من البدء وهو أول الشيء ومبتدؤه؛ وعليه يكون الإنسان الأول جاء بادياً إلى الأرض ليعيش فيها حسب امكاناته التي كانت محدودة جداً؛ والتي لا تساعده على أن يعيش أو يمارس حياة متحضرة؛ وتعتبر البداوة أقدم نمط اجتماعي للحياة لدى الإنسان.

والبداوة سواء في التفكير أو السلوك أو المعايشة اليومية لما حوله؛ في مفهومها العام نمط قائم على التنقل وعدم الإستقرار طلباً للرزق في الأرض؛ وذلك عن طريقين للحياة وهما البحث عن الماء والكلأ[1].

---

(١) صابر محي الدين ولويس مليكه البدو والبداوة، ط ١٩٨٦م، ص ١٨.

وتلك حياة تعب وكفاح ومخاطرة مع الطبيعة المحيطة بالبدوي؛ بعكس المتحضر الذي يميل إلى أقرب السبل وأيسرها.

ولعل أقرب مثال على ذلك ما جاء في قصة يوسف عليه السلام؛ حينما نزل إلى البلد المتحضر وحمد الله على أن جاء أهله من " البدو" الذين هم ساكنوا الصحراء والمتنقلون فيها؛ ليرتاحوا من التعب.

والبدوي الأول كان يعيش على الأرض بلا غطاء ولا فراش ولا أي شيء مما يحتاجه لممارسة حياته اليومية التي يعيشها.

كان يجري مع الوحوش ويصارعها ويأكل منها أو تأكله؛ لكنه في نفس الوقت يتعلم السلوك السوي الذي يمكنه من العيش بسلام؛ ويمكنه أيضاً من التفوق على تلك المخلوقات؛ لسبب واحد وهو العقل؛ والعقل ميزان الحياة الذي يجعلها تسير بنظام وترتيب وحيطة أيضا؛ وهو نقيض التهور والإندفاع الذي هو سلوك حيواني بحت.

لذلك سكن الكهف حتى ينام آمناً من عدوه وهو الحيوان المفترس يومها؛ وشعوره هو نوع من السلوك دله عليه الحيطة والخوف.

وتطور ذلك السلوك إلى أن يحاول صنع حذاء وغطاء وبيتاً من الحجر أو غيره مما يوجد في البيئة ويكون سهل التكاليف؛ ليحمي به نفسه.

وهذا الإنسان يجد في نفسه ميلاً إلى العيش مع غيره من جنسه؛ حتى يحس بالأمن والألفة والأنس في نفس الوقت؛ لكن هذا السلوك علمه أيضا الصراع والكيد وحل المشكلة والبحث عن حل مناسب لها نوعاً ما؛ وإن كان السلوك الطاغي هو الفوضوية واستعمال القوة العضلية أكثر من العقل ذاته.

ونتيجة لهذا النوع من الحياة؛ جاء الإنسان الأول قوي الجسم والإرادة والعزم والتصميم ؛ وكثير الإندفاع حيال الهدف الذي قد يفقد حياته ثمناً له؛ وهذه التصرفات مجتمعة تسمى بالشجاعة عنده؛ أو هكذا يفسرها المقابل له؛ لأن الشجاعة في مظهرها نوع من القوة والبطش والإندفاع نحو الهدف؛ بتفكير أو حتى بدون التفكير في النتيجة اللاحقة.

وعندما تكاثر الإنسان وتشعبت فروعه وتباعدت عن الأصول الأولى بدأ التكيف مع البيئة والمحيطين به بشكل أكثر عقلانية من ذي قبل.

ولأن الحياة المحيطة به هي أكثرها من الحيوانات؛ فقد روض أغلبها لخدمته كالجمال والحمير وغيرها من

الحيوانات البرية التي كانت تصارعه على البقاء في الأرض؛ وصارت ألفة بين الإنسان والحيوان حتى صارت هي محور حياته وهدفه الذي ينشد الإكثار من اقتنائه؛ وخاصة الإبل لأنها تصبر على كل عوامل البيئة التي يعيشها؛ وصارت هي عبارة عن رأسمال جيد ومفضل لديه.

ونتيجة لوجود الإبل والخيل؛ كثر الشقاق وكثرت الحروب بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ ففكر من لا يحب أن يعيش ممارسات لا يرغبها من حرب وقتل وسلب ونهب؛ ويحب أن يعيش هادئاً قرير العين؛ فكر هذا الإنسان في البقاء في مكان معين متى ما أراده أخوه أو صديقه وجده في ذلك المكان؛ فزرع الأرض وأحاط زراعته ونفسه بسياج من الآجر أو الطين أو غير ذلك؛ واستقر وأنتج الحبوب وغيرها مما يحتاجه البدوي الذي لا زال على بداوته وصراعه للصحراء والإبل والخيل؛ ومن هنا جاءت الحضارة كبذرة للصناعة والحياة المدنية التي هدفها السعادة والهدوء والإستقرار بدلاً من الرحيل اليومي المضني.

هكذا تفرق الإنسان وبدأ تصنيفه إلى بدوي وحضري وهو تصنيف قائم على المكان وسلوك الإنسان والمهنة التي يمتهنها أيضا؛ وتلك حكمة الله في جعل بعضهم يخدم

الآخر ويسهل له حياته؛ فلا تقوم حياة البدوي بدون أخيه الحضري ؛ وكذا حياة الحضري لا تقوم دون البدوي؛ لأن مصالح كل فئة عند الفئة الأخرى تقريبا.

البادية في وسط الجزيرة العربية

قامت الحياة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام على الحياة البدوية في الغالب لسبب واحد؛ وهو أن أغلب السكان يقوم اقتصادهم على الحيوانات ومنها الأنعام والتي يسمونها "حمر النعم" وكان يضرب بها المثل في الثراء والعزة العالية؛ والتي تتمل في القدرة على حمايتها من الطامعين فيها؛ وفي نفس الوقت؛ كانت هناك حضارات قائمة ومدن عربية عريقة في التحضر والحضارة مثل مكة المكرمة ويبرين واليمن وبلاد الغساسنة والمناذرة الكثيرة على الحدود الشمالية لجزيرة العرب؛ وكانت هناك رحلات تجارية بين تلك المدن العربية.

جاء الإسلام؛ وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة فوجد معارضة شديدة من القبائل الحضرية والبدوية على حد سواء؛ إذ وقفت مكة وكذا الطائف تجاه الدعوة؛ وصارتا تحشدان أهل البادية وغيرهم لمواجهة نمو الإسلام وحركته؛ خاصة في منتدى عكاظ ومواسم الحج الجاهلية إلى مكة المكرمة.

نتج عن هذا الموقف المتشدد والدعاية القرشية القوية ضد الإسلام أن أعرض كثير من البادية عن الدعوة بسبب التخويف منها؛ لكنه إعراض لم يدم طويلاً؛ فقد عم

الإسلام جزيرة العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد تمثل موقف من مواقف الرفض لها عند البادية؛ أن أحدهم حينما وفد إلى المدينة المنورة وعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام لم يمانع إذا تحقق له شرط واحد؛ وهو الذي جاء في قوله " لك المدر ولي الوبر".

وهذا دليل على تعلق البادية بالوبر حتى ولو أسلموا؛ وهو ما حصل فعلاً بعد ذلك حينما دخلت القبائل العربية في الإسلام وبقيت على بداوتها؛ بالرغم من أن الإسلام انتشر بسيوف العرب ورماحهم وأخلصوا النية وصدقوا الله على ما عاهدوا عليه؛ لكنهم استمروا في حياة الصحراء(٢).

وعندما سقطت الخلافة الإسلامية بقيت البادية في صحرائها؛ لكنها صارت تموج في الجزيرة العربية بهجراتها المعروفة بحثاً عن الماء والكلأ لأنعامها.

واستمرت البداوة تتسع لدى العرب الخلص كلما بعد عهدهم عن نزول الوحي؛ حتى صارت طباعهم تتخشن وسلوكهم في الصحراء يزداد عنفاً كعنف الصحراء ذاتها؛ لأن الحياة تفرض ذلك المسلك عليهم.

---

(٢) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "استوصوا بالأعراب خيراً؛ فإنهم مادة الإسلام وهم انتشر".

وتجاه ذلك المسلك للأكثرية؛ صار البادية هم أغلب سكان الجزيرة العربية؛ لأن الأساس الإقتصادي لهم هو الأنعام التي لا يمكن تربيتها في المدن الحضرية؛ ولأن قيام حياة الإبل هو على النباتات البرية التي يجب على صاحبها أن يتبعها للبحث عن المرعى الجيد الذي ستكون ضريبته هي الحرب من أجل الحصول عليه أو حماية إبله.

وبادية وسط الجزيرة العربية [التي هي محل بحثنا] كلهم من العرب الخلص ؛ سواء أكانوا من نسل قحطان أو عدنان؛ وهي القبائل التي عاشت في وسط الجزيرة العربية؛ وذلك من خلال الهجرات من كل مكان في الجزيرة العربية ذاتها؛ وخاصة في الفترة من القرن العاشر إلى نهاية الثالث عشر الهجري [أي قبل توحيد المملكة العربية السعودية الحالية].

وكان في وسط الجزيرة العربية قبائل كثيرة مثل قحطان التي جاءت إلى جنوبي نجد وسيطرت عليه إلى نصف القرن الثالث عشر الهجري؛ وقبلها كانت عنزة وقبلهما كانت قبيلة الفضول[٣]؛ وجاءت قبيلة مطير ليكون لها مكان مع قحطان؛ ومثلها قبيلة حرب التي امتدت من المدينة المنورة إلى عالية نجد وأطراف القصيم الشرقية.

---

(٣) الفضول من قحطان. وعنزة أبناء بكر بن وائل العدنانية.

وفي سنة ١٢١٠هـ جاءت قبيلة عتيبة من الحجاز لتكون ممتدة من جبال اليمامة إلى مكة وما جاورها بخط عرض يتراوح ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ كم.

وفي شمالي نجد توجد إمارة آل رشيد؛ التي كان لها ثقلها لدى القبائل البدوية؛ وهي إمارة شمرية بحتة: حيث ينتمي آل رشيد إلى قبيلة شمر؛ التي منازلها من حائل إلى حدود العراق والشام آنذاك.

أما في بؤرة نجد فقد قامت الدولة السعودية الأولى والثانية بالتعاقب؛ رغم فترات الإنقطاع في الحكم. وصارت البادية في وسط الجزيرة العربية بمعزل عن غيرهم؛ أو لنقل منغلقين حيث لم يأت الكثير من الرحالين لهم مثلما أتوا إلى شمالي الجزيرة العربية والشام؛ ولعل سبب ذلك أن الأمن لم يكن متوفراً؛ وأن المجازفة بالنفس لزيارة تلك البوادي لم يرد في أذهان الرحالين؛ ثم أن الرحالين في اعتقادهم أن البادية تتركز بشكل ملحوظ في بوادي الشام التي تتصل بالعالم الغربي عن طريق السفراء والمبشرين هناك؛ لذا بقي إرث تلك القبائل في وسط الجزيرة العربية مهملاً لم يدون؛ إلا ما كان من الوثائق التركية التي لا تهتم سوى بالجانب السياسي ومواقف القبائل منهم؛ ولكن الشعر النبطي [دخله التحريف ولا

يعتد بأغلبه الآن كمصدر تاريخي] حفظ الكثير من العادات والتقاليد التي بقيت رغم التحضر.

وكنتيجة لتموج القبائل في نجد؛ فقد تكاثرت قبيلة مطير في شرقي نجد حتى صار تمركزها الدهناء والصمان إلى القصيم وأطراف المدينة المنورة وحدود الكويت، ويجاورها من الشرق قبيلة العجمان اليامية؛ وكذا بنو هاجر؛ وبعدهم من الشرق آل مرة ثم المناصير؛ وهكذا غيرهم من العرب؛ أما قبيلة حرب فقد بدأت تمتد من أطراف المدينة نحو القصيم؛ بل تجاوزته إلى شرقه أيضا؛ أما ناحية الحجاز وما جاورها فهناك عنزة شمال غربي مكة وكذا جهينة وبلي؛ أما عن الجنوب من مكة فهناك أجزاء من عتيبة في الطائف وما جاورها لم تنجد؛ بل بقيت في بلدها الأصلي؛ وكذا البقوم وسبيع وغامد وزهران وبالحارث ومنهم الشلاوي الذين أغلبهم بادية يجيئون إلى أطراف نجد؛ وفي وسط نجد حيث الدرعية عاصمة آل سعود بما يسمى العارض(٤)؛ تعيش قبائل تسمى قبائل العارض أو أهل العارض؛ ومنهم سبيع العارض والسهول والقرينات والمفاقيع وآل شامر من العجمان وبعض بني هاجر وبعض قحطان؛ هكذا كانت

(٤) العارض تشمل الرياض والدرعية والعمارية والعيينة وأبا الكباش وما جاورها وكذا تدخل ضرمى والمزاحمية في العارض؛ وسمي عارضاً لاعتراض جبل اليمامة.

تحركات القبائل العربية؛ ولعل الملاحظ أنها تتكثف في وسط نجد وتقاتل بعضها للفوز به لأنه المرعى الجيد والذي فيه مياه للأنعام رغم وجود الدرع العربي الذي يغطي مساحة كبيرة منه.

وكل تلك القبائل العربية كان الصراع لها ديدن والقتال مهنة؛ ولكل قبيلة أعرافها الخاصة بها وتقاليدها التي لا تخرج عنها؛ بالرغم من أن الدولة السعودية الأولى والثانية كانت دولة إسلامية المنحى والتطبيق.

ولأن البداوة تركزت في نجد ؛ وصارت لها أعرافاً منغلقة عليها؛ بالرغم من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ؛ حيث لا زال الولاء للأرض والقبيلة رغم وجود الدولة التي تزكي أموالهم وهم جند لها أيضاً؛ وفي تلك الأراضي انتشرت القبائل التي لا تستقر في مكان معين ولا تهتم ببناء حضارة؛ إذ أن هدفهم وجود المرعى والماء لأنعامهم فقط؛ واستمروا هكذا حتى جاء الملك عبدالعزيز رحمه الله؛ فوقفوا معه وقفة صدق؛ ثم وقف بعضهم ضده؛ حتى استقرت المملكة العربية السعودية الآن؛ وبعد استقرار المملكة وفي البدايات للإستقرار أصاب الناس فقر شديد؛ تحتم عليه مغادرة كثير من أبناء القبائل إلى خارج المملكة؛ وكذا أثناء توحيد المملكة العربية السعودية الحالية نزح كثير من حاضرة

نجد إلى الشام والعراق والكويت بعد أن ضاق بهم العيش؛ أو لسبب آخر آنذاك؛ ومن ثم عاد أغلبهم من غربته بعد استقرار الأمن واكتشاف البترول؛ حتى لقد رجعت عائلات نجدية كثيرة كانت مقيمة في الزبير أثناء توحيد المملكة؛ ثم في سنة ١٣٩٥هـ بعدما يسمى بالطفرة رجعت عائلات كثيرة من الزبير إلى وطنهم، وكانوا يحملون عقلية تجارية متطورة عن غيرهم من النجديين الذين لم يحتكوا بحضارات أخرى؛ فكان لهؤلاء نصيب كبير من الشهرة التجارية الحالية.

تلك القبائل البدوية كانت لها عادات وأعرافها التي تسير حياتها عليها ولتلك العادات حماية منها بل ومحافظة على استمراريتها؛ نتج عن تلك المجتمعات ما نسميه حضارة تجاوزا؛ خاصة في القوانين والأعراف والطرق التي هي منهج حياتهم ومعيارية تعاملهم.

الشخصية البدوية

خلق الله خلقه وفرق بينهم في الخلقة والخلق؛ وفرق بين الجماعات والأفراد في السلوك والتصرف؛ كل حسب محيطه وحاجته لذلك المنحى من التصرف؛ ومثلما تجمع العائلة أفرادها؛ وتجمع بينهم صلة رحم؛ فإن المجتمع البدوي يزيد هذه الركيزة ركيزة أقوى وأكبر وهي القبيلة؛ بيد أن الفرد في القبيلة له حرية أكثر؛ وأفق أوسع منه عند الحاضرة؛ لأن الرقيب لديه ضعيف في الصحراء؛ لذلك فهو سريع التقلب والإندفاع وهذا التقلب يكبحه ما يسمى عرف القبيلة؛ إذ يتنازل عن أشياء يرغبها مقدماً رغبة قومه على رغبته هو رغماً من شدة رغبته شخصياً؛ أي أن البدوي يعيش الشعور الإجتماعي أكثر من الفردي؛ بالرغم من حريته الشخصية التي يتنازل عنها؛ والتي يرغبها عقله وشعوره الفردي؛ أي أن طابع البدوي طابع إجتماعي أكثر منه فردي منفصل؛ (ولعل أهم ما يوجه سلوك البدوي هو مسألة العيب؛ لذا يحاول أن لا يوصف بأنه ارتكب عملاً معيبا).

ولعل من أكبر الضغوط التي يعيشها البدوي هو ضغط القبيلة وأعرافها التي تمارسها؛ فهي تفرض عليه الجبان أن يكون شجاعاً أو يموت في الغالب؛ وعلى

البخيل أن يكون كريماً ولو لم يرد ذلك؛ وغير ذلك من السلوكيات التي منها تتركب شخصية الإنسان؛ لذلك نجد أن الحاضرة كانوا [قبل التعليم] يرسلون أبناءهم إلى البادية القريبة منهم لكي يعيشوا حياة الخشونة وصراع الظروف القاسية التي تجعل من الشاب معتمداً على قدراته وذاته ومتصفاً بالصبر والكفاح والقوة.

والرجل البدوي عزيز النفس؛ قنوعاً مترفعاً عن الصغائر والتي لا يلقي لها بالا؛ حتى أنه أحياناً ربما جاع ليشبع ضيفه أو صاحبه وهذا يسمى إيثار على النفس؛ لأنه يعرف جيداً أنه قادر على تحصيل رزقه بأية وسيلة لذا يؤثر غيره. قال شاعرهم:

لا قلت الكسرة(٥) وربعي مشافيح

أخلي الكسرة لربعي واشومي(٦)

ويعني بالكسرة التمرة؛ حيث يتجمع التمر كتلة واحدة ككسرة حجر؛ وكلمة مشافيح تعني أصحاب جشع وحب للذات؛ أما كلمة أشوم فهي تعني أترفع وأرفع نفسي وأعتلي فوق ملذة جسدي ورغباته.

والرجل البدوي كبير العاطفة ؛ وسريع التأثر بها والتأثير بها في مجتمعه خاصة؛ وهو مخلص لصاحبته

---

(٥) اختلف الرواة في تلك الكلمة؛ فبعضهم قال الكسرة وبعضهم قال الوزنه وبعضهم قال غير ذلك.

(٦) لشليويح العطاوي.

وأكثر إخلاصاً أيضاً لما يهوى من هوايات الحياة التي يقطع وعداً على نفسه بالتوجه كلياً لها؛ ولذلك فهو يخالف معيارية النمط البدوي أحياناً ؛ ويفرط في تلك الهواية كالشجاعة والقتال وكالكرم والإيثار وحب الصيد وغير ذلك من معايير الأخلاق المحمودة عندهم وفي وقتهم.

وشخصية الرجل البدوي متقلبة أحياناً مثل عوامل البادية نفسها؛ لكن النمط العام لا يتغير عنده؛ لأن هناك رقيب إجتماعي يجب أن يخضع له حتى ولو حاول التخلص منه؛ ثم أن المبدأ لا يتغير عنده.

وبوجه عام؛ فالبدوي يهتم بصفات متميزة هي دثار حياته العربية الخالصة ؛ والتي تراكمت مع الزمن وصنعت منه إنساناً أقرب إلى المثالية؛ مثل الكرم والحمية والإيثار والنجدة وحب فعل الخير والخشونة والغلظة والشدة وصلابة الموقف؛ والدفاع عن الشرف والعرض والمال والأرض؛ وكذا الترفع عن الدنايا من الأمور؛ وهو متدين بالفطرة والإعتناق لدينه الذي يحافظ عليه حتى في أشد الأوقات عنفاً ومشاغلة؛ لكن هذا الدين عنده ينقصه التثقيف بالرغم من سلامة النية والمعتقد؛ قال أحد فرسانهم:

وأخير منهن ركعتين بالأسحار

لا طاب نوم اللي حياته خساره[٧]

فهو هنا يقارع الخصوم نهاراً ؛ لكنه في آخر الليل يتهجد ؛ ويرى أن من ينام عن صلاة الشفع والوتر خاسراً في حياته.

والبدوي هو فعلاً صورة الرجل العربي الصميم التي طرأ عليها تغير بعد التحضر في الوقت الحالي.

وهو لا يحب الحجر على حياته ؛ بل يحب الإنطلاق في الآفاق؛ ويحب الصحراء حتى لو كان وحيداً بدون أنعام؛ قال شاعرهم:

عندي ركوب ملافحات المشاعيب

أحب عندي من ظلال القصوري

يا طول ما رحنا على الفطر الشيب

لا قايل النسوان كل معثوري

قدامهم شرفت روس المراقيب

أنا ومثلي للنشامى سبوري[٨]

والعائلة البدوية تفرح كثيراً بالمولود الذكر؛ لأنه يكون مصدر قوة لها في حياتها؛ لذا تجد الإهتمام به يكون مبكراً جداً؛ حيث تذبح عقيقته بشكل فيه كثير من الفرح

---

(٧) للشيخ تركي بن حميد.

(٨) لبادي بن ديان السبيعي؛ ومعنى سبور جمع سبر وهو من يستكشف الموضع قبل قومه.

والتفاؤل؛ إذ تجيء الفرحة بذبح كبشين يدعى لهما الجيران ووجوه القوم إن لم يكن الفريق كله. ويبدأ القادم الجديد في حياته منذ الطفولة؛ فهو يخلد اسم العائلة إذ يسمى على اسم جده في الغالب؛ خاصة إذا كان الولد البكر؛ ويختارون عادة الأسماء التي تدل على الصلابة والقوة والكرم والرجولة؛ مثل مسلط وسلطان وعساف وتركي وشري وغازي ولهاب ؛ أو هكذا من الأسماء التي أغلبها على وزن فعّال أو فاعل أو مفعال؛ طبعاً لأن البيئة الخشنة تحتم عليهم اختيار نبرات الصوت عند نداء الشخص من بعيد ؛ وهم بذلك يقولون " أسماؤنا لأعدائنا وأسماء نسائنا وعبيدنا لنا " فيختارون لعبيدهم اسم مبارك وسعيد وجوهر وعنبر وغير ذلك؛ وكذا يختارون لزوجاتهم الأسماء اللامعة مثل قمراء(٩) ووضحاء وصبحاء وفيحاء وجوزاء وسارة ونورة وجواهر.. الخ.

لكن الطفل البدوي يترعرع على حياة شاقة ليس فيها عطف يحس به؛ حتى أن أمه حينما تحمله تضعه أحياناً في الخرج فوق الدابة؛ لذلك يجيء ممسوخاً من اللهو واللعب ويتكون طفلاً ومراهقاً وشاباً ثم رجلاً وهو شديد

---

(٩) القمراء هي منتصف الشهر ويقولون رجل أقمر أي أبيض؛ ووضحاء هي البيضاء أيضاً؛ وصبحاء من جبينها أبيض؛ وفيحاء تعني الروضة الفواحة الرائحة؛ وجوزاء تعني نجوم الجوزاء اللامعة؛ أما البقيـــة مـــن الأسماء فمعروفة للجميع "أنظر كتابي الأسماء الشعبية".

المراس صلب المكسر والمذاق أيضا؛ ولعل أول مظاهر الشدة وتحمل الصبر هو مسألة توقيت الختان عندهم؛ إذ يكون ما بين الرابعة والخامسة من العمر؛ فيأتي [المطهر] ومعه أدوات القطع وهي الموسى وشيء من الأدوات المستعملة للختان، فيبدأ بشحذها أمام الطفل الذي يجلس على قدر منكس الفوهة إلى الأرض وهو فوقه ينظر بعينيه إلى الموسى في يد المطهر؛ فإذا حاول التخوف نهره والده أو من عنده بقوله له: أنت رجال ما أنت بمره تبكي. أي لا تبكي أنت رجل لا امرأة!!

وبعد الانتهاء من الختان يقومون بشق ثوبه من الأمام حتى لا يحك الثوب محل الختان؛ وأغلبهم يمشي عاريا حتى يبرأ جرحه (١٠).

وقد صور الزركلي في رحلته إلى الحجاز الختان عند إحدى القبائل هناك؛ وأخبر أن الغلام لا يختن إلا إذ بلغ الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من عمره؛ فيجتمعون قبل الختان ويلعبون بالسيوف والغلام معهم؛ فإذا جاء موعد الختان جاء الطفل ومعه سكين مشحوذة جيداً وجلس على صخرة ملوثة بدم كبش قد ذبحوه وليمة؛ فيقوم بمد

(١٠) أظن أن بعض من أعمارهم من الخمسين سنة من الآن فما فوق قد ختنوا على تلك الطريقة: لأن الأطباء قلة يومها.

السكين إلى المطهر وهو يقول بكل جرأة: طهر يا مطهر وجود التطهير(١١).

ويتعتبر فرح الختان عند البادية من أهم الأفراح؛ لأنه أضيف إلى المدافعين عن القبيلة شخص جديد. والصبي البدوي يعيش الحرمان طوال فترة الطفولة التي يتمنى أن تنتهي حتى يحسب رجلاً؛ فإذا تجاوز الرابعة عشرة بدأ الرجال يعاملونه على أساس أنه رجل كامل الرجولة وفي نفس الوقت ناقصها؛ إذ تسند إليه المهام التي يستطيع أداءها مثل الرعي واستقبال الضيوف وملاحظة حوائج البيت وهكذا حتى يصل الثامنة عشرة من عمره؛ فإذا وصل هذا الحد اعتبروه رجلاً سوياً له ما للرجال وعليه ما عليهم.

وهناك وسيلتان عندهم تعتبران من أحسن طرقهم لإختبار الرجولة والحكم على الفتى وهما [النكاح أو الصياح] عندها يعرفونه جيداً؛ لذا يقولون في أمثالهم: الولد عقب صياح أو نكاح. أي أنه يبرز أو يخفق بعد الزواج أو إغارة الأعداء؛ فإذا أثبت شجاعته فهم يحسبون له حساباً.

وأما أخلاقيات الرجل البدوي بوجه عام وسلوكياته؛ فهي محكومة [كما قلنا] بعرف العشيرة أو القبيلة التي

---

(١١) الزركلي خير الدين، ما رأيت وما سمعت، المكتبة الكمالية.

يحافظ عليها حتى ولو لم يقتنع بها؛ وهو يجمع كل المتناقضات والمتضادات في آن واحد؛ فتراه كريماً وتراه بخيلاً وتراه عفيفاً وبالعكس؛ وتلك التغيرات ما هي إلا ترجمة لأجواء الصحراء والحرمان الذي عاشه في طفولته؛ فهو سمح وحاقد وبسيط ومعقد؛ لكنه لا يتنازل عن المبدأ العام وهو الدين والرجولة التي يفسرها حسب معرفته لها؛ فهو ميال إلى السلب والنهب ويراها شجاعة وفتوة؛ وفي نفس الوقت كريم بما ينال ويتعب عليه فهو يبذله لضيفه؛ ولو جاءه من سلبه وطلب منه ما أخذه منه لأعطاه إياه؛ عن سماحة ورضى منه. والبادية لا يرون طالب الهبة؛ لذا تجد الذي يعرف متى يستغل البدوي في طلب شيء منه يوقت ذلك في حالة الإنبهار والسرور؛ فيقول له وقتها: _ الحذية[١٢]. هكذا.. وسرعان ما يرد عليه بقوله:

: _ أبشر بالعطية . فيأخذ منه ما معه من سماحة وكرم !!.

وعمر البدوي يعتبر من أقصر الأعمار؛ مقارنة بغيره من أمثاله لأنه يعيش حالة خطرة من الحروب؛ لذا تجد الشجعان والأبطال قد انقطع نسلهم؛ ولم يذكر أن أحد الشجعان والفرسان قد عمر طويلاً إلا ما ذكر عن الفارس

---

(١٢) الحذية: أطلبك العطية؛ وهي عربية فصحى.

مسلط بن ربيعان [راعي سبلاء] الذي عمر طويلاً وتوفي في أواخر سنة ١٣١١هـ[١٣]؛ وإلا فالفرسان لا يتجاوزون عادة الستين أو السبعين من العمر على الأكثر؛ بل بعضهم يقتل في عز قوته وشبابه مثل الفارس تريحيب بن شري بن بصيص المطيري؛ لذلك تجد أن أغلب الفرسان المشهورين انقطعت ذريتهم وسلسلة نسبهم اليوم.

والرجل البدوي قليل الاهتمام بملذات جسده ومطالبه؛ فتراه يؤثر على نفسه غيره من الناس؛ وحتى لو كان فقيراً مدقعاً فإنه لا بد من أن يتحمل الديون لإكرام ضيفه مهما بلغ به الفقر؛ ويعتبر ذلك من ستر الوجه.

والرجل البدوي في وسط الجزيرة العربية في الغالب سريع الإنفعال؛ بعكس أخيه الشمالي الذي لا ينفعل بسرعة؛ لذلك تجد من أمثالهم قولهم

: _ خلك شمالي. أي غير منفعل بسرعة.

والصبر خلق معروف عند البادية؛ لذا تجد الجلادة والصبر صنوان في الغالب عند علية القوم الذين يواجهون المشاكل ويحلونها بسرعة.

(١٣) يروى أن الشيخ محمد بن هدي لما رأى الشيخ مسلطاً يحمل على جمل وقد هرم قال: ـــ إني لأعجب من الجبان كيف يخاف المنية وهذا مسلط الذي عارك الكثيرين لم يمت من الحروب بل امتد به العمر. أ.هـ.

والرجل البدوي كريم في كل شيء وجزل؛ وحتى في جاهه فإنه لا يبخل به؛ ولأن الجاه مهم عندهم خاصة أصحاب المقامات؛ فإنهم يعتبرون من لا يبذل جاهه بخيلاً؛ ومن أمثالهم "البخيل بخيل الجاه".

ثم أن مسألة القضاء والقدر عندهم شيئاً مسلماً به؛ لذا لا يخافون مواجهة الفرسان مثلهم؛ قال أحد فرسانهم:

ضرب الموارت[١٤] ما بها نوماس

حذفة[١٥] شرود من بعيد

على قضب عنانها والراس

والله يدبر ما يريد

على باللي تبعد المرواس

والعمر لزم انه يبيد[١٦]

وهذا من أعظم أنواع الشجاعة والفداء؛ إذ يقف الفارس أمام خصمه واضحاً؛ بل من الدناءة عندهم أن تفاجئ خصمك دون أن تشعره بذلك لذلك فهم يحتقرون قتل الغيلة وختل الخصم أو مداهمته دون أن يتهيأ للدفاع عن نفسه؛ ومن البدهيات لديهم قولهم للخصم بصوت مسموع " يا فلان تراني جيتك افتك عمرك "؛ والرجل

---

(١٤) الموارت: جمع مارتي وهو نوع من البنادق القديمة.

(١٥) الحذف: هو رمي الحجر على الخصم.

(١٦) تنسب للشيخ محمد بن هندي بن حميد رحمه الله.

البدوي لا يحتقر خصمه مهما كانت حقارته ودناءته؛ بل يراه نداً قوياً له.

ومن مزايا الرجل البدوي في الغالب أنه لا يخون صاحبه في مال أو عرض أو شرف؛ بل أن من أكل مع الرجل في إناء واحد يحافظ على ذلك " العيش والملح " الذي بينهما؛ وتلك سجية من أجمل سجاياهم؛ ومن سجاياه أنه يحترم الوعد أو الكلمة التي يعطيها؛ فلا يخالف ما قال مهما كلفه الثمن؛ لذلك يقولون في أمثالهم " كلمة الرجّال عقاله " أي أنها تعقله وتكون لزاماً عليه؛ وكذا قولهم في أمثالهم " عيب قوله إيه ثم بدا " وبدا: تعني لا.

البادية والأرض

بعد الماء في الأهمية لحياة البادية تأتي الأرض من حيث السكن والمورد والمرعى والرحيل والإقامة؛ أو حتى الحرب(١٧).. وهكذا.

فهم يهتمون بالأرض من حيث السكن والمرعى والماء؛ فالبدوي يبني بيته فوق كل مرتفع من مجرى السيل؛ ويختارون لمنازلهم الأرض اللينة التي يسمونها "دماث" ربما أنها من الليونة ودماثة الخلق؛ ولا ينزلون في الأودية حتى وهم في عز الصيف(١٨)؛ كما أنهم لا يبنون بيوتهم في قمم الجبال ولا ملاصقة لموارد المياه؛ ومن ناحية المرعى يختارون الأرض التي يتوفر فيها الكلأ والماء معاً؛ وأنواع أو أسماء الأرض عندهم تجيء بتسميات بعضها مغرق في العامية وبعضها فصيح؛ ومن الأسماء ما يلي:

الحماد: وهي الأرض السهلة الممتدة؛ ومفردها حمادة؛ وهي الأرض التي تكون عادة غير مشتبكة مع

---

(١٧) كان للأرض دور في الانتصارات في الحروب من حيث موافقتها لكر وفر الخيل؛ ومثال ذلك قـــول دريد بن الصمة المشهور عن أرض أوطاس في معركة حنين.

(١٨) كانت الأودية تسيل من مكان بعيد وتأتي إلى الأرض التي فيها قوم لم يمطروا؛ وخاصة أن الماء يجيء مع الوادي مسرعاً؛ لذا يخافون من تلك الحالة؛ ويسمون هذا الماء جذيباً.

جبال؛ وأكثر تربتها طينية يخالطها رمل؛ ومثاله حمادة الوشم؛ التي تمتد بين جبال اليمامة وبين النفود الحمراء. وتلك الأراضي من أحسن المراعي للأنعام حيث يوجد فيها نبات الرمث والحمض؛ وهما نباتان تكثر المادة الملحية فيهما وهي ما تشتهيه الإبل؛ بل إن الإبل لا تصبر عن الحمض؛ حتى أن من لم يكن في موطنه حمض يستعيض عنه بوضع الملح للابل؛ وإن لم تجد ملحاً فسوف ترحل من تلقاء نفسها بحثاً عنه في الأماكن التي تعرفها.

والفياض والرياض: جمع فيضة وروضة؛ وفي الشكل لا اختلاف بينهما؛ غير أن الفيضة تكون غير عميقة وعكسها الروضة التي هي مجمع السيول؛ وكأن اسم الفيضة أخذ من إفاضة الماء إذا ساح وخرج من مضيق الوادي [تسمى خبراء وجمعها خباري] بينما الروضة من الترويض وهي حبس الماء المتدفق في مهبط من الأرض بعد قوّة اندفاعه من الأودية؛ أو هي من نبات يسمى الروض؛ وهو نبات يكثر في الرياض لا غيرها؛ والفياض والرياض مراعي جيدة في وقت الربيع فقط؛ إذ ينبت فيها أنواع من الأعشاب التي تكون عادة موسمية مثل الروض والنفل والشمطري وغيرها؛ غير أن البادية

تتحاشى رعي الأغنام فيها في بداية طلوع النباتات لأن ذلك مهلك للأغنام عادة.

النفود: وهي المراعي المفضلة شتاء للبادية لأن البرد فيها يكون أخف منه في الأراضي الجبلية؛ ولأن الإبل تزداد صحتها ويكثر شحمها في النفوذ شتاء؛ ثم إن الإبل لا تشرب الماء شتاء لوجود الماء في الأعشاب؛ لذلك يقولون [أجـــزلت الإبل] إذا امتنعت عن شرب المـــاء.

أما صيفاً؛ فإن النفود التي بقربها حماد تكون منزلاً مفضلاً لدى البادية حيث تجد الإبل النباتات اليابسة والتي تتغذى عليها عندما يفقد العشب؛ ويسمون تلك النباتات بـــ "الحميس" أي بمعنى محمص[١٩] لأن الشمس حمصت النباتات حتى يبست؛ وهذه النباتات جيدة للرعي إذ تحافظ الأنعام على ما اكتنزته من شحم في الربيع؛ خاصة إذا وجد بقربها مياه شرب.

أما الأراضي الجبلية: فهي جيدة المرعى؛ لكن البادية أهل الإبل لا يحبذون النزول فيها لأن الجبال شاقة على تحرك الإبل كمجموعة كبيرة بحكم أنها تتفرق في الأودية والشعاب الصغيرة؛ مما يجعلها صعبة التحكم

---

(١٩) في لهجة البادية يقولون: – احمس القهوة؛ أي حمصها؛ وهي محموسة؛ أي محمصة.

فيها؛ ويجعلها عرضة للسرقة من "الحنشل[٢٠]" وهم اللصوص المترصدون للغفلة من الراعي لسرقة بعض ما لديه من أنعام.

ووسط نجد بالذات هو المكان المفضل للبادية بحكم كثرة التضاريس فيه وتنوعها وقرب مسافاتها؛ وكذا تنوع المراعي فيه واختلاف الأشجار والنباتات البرية؛ لذلك جاء صراع القبائل العربية على وسط نجد بالذات منذ أن عرفوا الحياة؛ وخاصة النير وما حوله من المراعي التي تسمى عالية نجد؛ وهناك أيام مشهورة لهم في هذا الوسط الغني بالمراعي وعذوبة المياه؛ فيقولون:- رعت عرجاء أو النير أو شربت من ماء كبشان أو الزحيف أو ضرية؛ أو غيرها ذلك من المواقع التي هي في وسط نجد؛ وتسمى تلك المناطق بـــ (عالية نجد[٢١]).

قال الشاعر:-

مصيافهن كبشان للبدو مشهاه

لا كن مزن الصيف بقران حادي

(٢٠) الحنشل: مفردها حنشولي وتعني الرجل المتربص لغرات الرعاة أو أصحاب البيوت ليسرق منــــها؛ خاصة الإبل أو الخيل ويسمون الأخير أيضاً حائفاً.

(٢١) تمتد عالية نجد من شقراء إلى أن تصل قريباً من حرار الطائف ومرتكزها الدوادمي وعفيف؛ وتمتـــد عرضاً حوالي ٤٠٠ كم تقريباً

وقال آخر:-

قالوا وردنا الحلو والحلو كبشان

والحلو الآخر ما الزحيف وضرية

وشمال الجزيرة العربية أطيب أرضاً؛ وأكثر كلأً؛ وأنفع للأنعام سواء في الربيع أو المحل؛ وهذا الجزء هو أول مكان للوسم وآخر مكان لانصرام العشب وذهابه عن وجه الأرض.

إلا أن الأماكن الجبلية تحفظ العشب اليابس زمناً أكثر من غيرها وذلك لكثرة إلتواءات الأرض ولأنها غير مكشوفة حتى يطير العشب المتيبس.

أما الصمان المعروفة بتضاريسها؛ فهي من أحسن المراعي للإبل؛ وهي المفضلة عند البادية؛ وخاصة وقت الربيع لتنوع النباتات فيها لذلك تعلق العرب بها أي تعلق.

وانتماء البدوي للأرض ليس انتماء وطنياً كما يقال اليوم؛ وإنماء انتماء مصلحة وحاجة واقتصاد وحب للأرض التي عرف مسالكها ومهالكها أيضاً؛ وهي التي تعود عليها وعرفها جيداً منذ طفولته وحتى شيخوخته؛ فمن مصلحته أن لا يزاحمه أحد على الماء أو المرعى فيها؛ وهو محتاج بشكل ضروري للحفاظ على موارد

المياه والمراعي لأنعامه؛ ونتيجة لذلك فإن اقتصاده يقوم على الأنعام التي تحتم عليه إيجاد أرض وماء وكلأ لها.

والأرض عند البادية نوعان؛ نوع يسيطرون على مائه وكلأه وهي التي تنتشر فيها القبيلة؛ ويعبرون عن امتلاكهم لها بقولهم:- ديار قبيلة كذا.

وأرض يجيئون إليها مؤقتاً للرعي فيها؛ وتلك الأرض تخص غيرهم وفي تلك الحالة يدفعون جزية للمسيطر على تلك الأرض؛ لكنهم يخففون وطأة تلك الكلمة إلى كلمة أخرى وهي قولهم "هدو" أي هدية؛ وما هي في اعتقادي بتلك أبدا!!.

ومن عادة المسيطر على أرض أن لا يمنع أحداً من المرور بها؛ خاصة وأن البادية ترحل من الجنوب إلى الشمال وقت الموسم لنزول المطر شمالاً بكثافة؛ وتعود صيفاً إلى أرضها في الوسط أو أطراف الجنوب أو أطراف الشرق أو غير ذلك؛ وتسمى تلك الرحلة إحالة فيقولون محيلين. وهؤلاء يمرون على عجل؛ لذا فلا يمنعونهم من الرعي أو السقيا [يسمون من يمر بالأرض قاصداً مواقع نزول المطر] "محيل" أي متحول من جهة إلى أخرى]؛ بل يكرمونه لأنه ضيف عندهم.

وفي وقت الحج يمر الحجاج عبر أراضي البادية ومعهم من يحميهم من قومهم من نفس القبيلة؛ ويسمونه

خوي؛ ويبقى هذا معهم حتى ينتهي الحج؛ فكلما أرادوا مرور أرض أخذوا من أهلها واحداً؛ أما الحجاج الذين لا يعرفون تلك العادة من غير العرب فكثيرون ما يكمن لهم الأقوياء من القبيلة ليأخذوا عليهم ما يسمونه "درمه[٢٢]" وهي ضريبة تجني لشيخ القبيلة مقابل عبور أراضيها.

والبادية تربطهم علاقة قوية بأهل القرى المجاورة؛ حيث أنهم يمتارون منهم ويبيعون عليهم فلا يمكن أن يسلبوا وهم ضمن أرضهم؛ ولأرضهم حرمتها لأنهم ضامنون لما يحدث فيها حسب أعراف تلك الأزمان؛ بل كانت هناك مقاضاة لهم على التفريط في تلك الأعراف [٢٣]؛ وكان القاضي له اليد المطلقة في الحكم والمطالبة بتنفيذ ما يحكم به [سنتحدث عن القضاء عندهم فيما بعد].

لم يكن هناك ما يسمى اليوم بالحدود بين أراضي القبائل؛ إذ يتوغل بعضهم في أرض الآخر ويعود بلا مشاكل؛ شريطة أن لا ينزل فيها ويرعى منها بصفة دائمة؛ ففي تلك الحالة يؤخذ منه الهدو؛ وهو مقابل الإقامة والرعي في الأرض التابعة لغيره من القبائل؛ وقد توجد مشاكل سببها الماء أكثر من الأرض ذاتها؛ وفي ظني لأن أرضهم أغلبها يقع في منطقة الدرع العربي القليل المياه؛

---

(٢٢) درمه: كلمة تركي تعني سر بلا تعطيل، أو لا عائق لك في سيرك.

(٢٣) البليهد محمد، صحيح الأخبار.

والذي تنضب مياه الآبار فيه بسرعة مقارنة بغيرها من ديار العرب كالأحساء وأرض العراق المتوفر فيها الماء بكثرة؛ أما الحمى من الأرض فهو محظور على القبيلة ذاتها وغيرها؛ والحمى هو أرض جيدة المرعى كالرياض والفياض التي يقوم شيخ القبيلة بمنع الناس من رعي الإبل أو الأغنام فيها؛ ويخصصها للخيل المقاتلة فقط؛ والأحمية معروفة منذ صدر الإسلام؛ إذ حمى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما نفء ووضاخ بعالية نجد وما حولهما لخيل المسلمين.

السكن البدوي

بما أن حياة البادية حياة حل وترحال أبدي؛ فإنهم قد اختاروا نوعاً من السكن يناسب لتلك الحالة؛ والإختيار لنوع السكن وشكله يكون موافقاً لخفة حمله وسرعة بنائه أو هدمه؛ وحيث أن الأداة التي يمكن أن يستغلوها لمادة الصنع ولوفرتها لديهم هي الصوف[٢٤]؛ فقد جاءت هي مادة الصنع لخيمة البدوي؛ بل هي كل المادة من أولها إلى آخرها؛ ويسمونه بيت الشعر تفريقاً له عن البيت المبني باللبن لدى الحواضر؛ وبيت الشعر عادة يجيء على شكل مستطيل تختلف أطواله حسب قوة وضعف صاحبه المادية؛ حتى أن بعضها يصل إلى أربعين أو خمسين متراً؛ أما العرض فلا يزيد عادة عن ستة أمتار في الغالب.

وطريقة صناعة تلك الخيمة [بيت الشعر] تقوم أولاً على جمع الصوف؛ ثم ينقى من العثة إن كانت فيه؛ ثم يفتل على شكل خيوط بين الغليظ والرقيق؛ وهذه الخيوط تجمع فيما يسمى [دجّـــه][٢٥] وهو لف الخيوط مع بعضها بشكل البيضة تماماً؛ يلي ذلك الحياكة وهو ما

---

(٢٤) الصوف هو شعر الأغنام.

(٢٥) يضرب البدو المثل للرجل الذي لا يعرف شيئاً بقولهم: فلان دجه. أي أنه مغلق تماماً مثل الدجة.

يسمى عندهم بـــ[السدو أو الغزل] الذي له طرق خاصة بهم؛ بل أن بعض النساء تتفوق على الأخريات في طريقتها لعمل بيت الشعر من حيث الجودة والإتقان والإحتراف أيضا؛ وتأتي حياكته على أطوال مختلفة؛ ولكن أغلبها لا يزيد على ستة أمتار لمراعاة الخفة فيه لثقل الصوف المستعمل خاصة إذا سقط عليه المطر لأنه يتشرب الماء؛ وهو يتكون من عدة أطوال لا يزيد عرض كل طول عن المتر؛ تسمى الواحدة منها [فليج] وربما أنها جاءت من الفلقة أي الشققة؛ وهذه الفلجان تصف بجوار بعضها بعد حياكتها ثم تخاط حتى تصبح قطعة واحدة مكونة بيت الشعر؛ الذي يرفع على ثلاثة أعمدة؛ يسمى أوسطها وأهمها [الواسط] ويسمون وجه البيت المقدم وآخره الموخر؛ وقد كون المؤخر مقدماً والمقدم مؤخراً؛ لأن البادية في نجد بالذات يوجهون بيوتهم للشمال والجنوب فقط؛ فإذا جاء البرد من الشمال اغلقوه وجعلوا وجهه جنوبا؛ وبالعكس أيضاً؛ أما الحبال التي تصل بين البيت والأوتاد فتسمى [أطناب] مفردها طنب؛ وهناك ما يثبت الطنب في البيت من حلقة من الحبال تسمى شبح مفردها شبحة.

وإذا رفع البيت فهناك سواتر له من نفس الشعر تسمى أذرية ومفردها يسمى [ذرى] وهذا الذرى يثبت

في البيت عن طريق غرز تسمى خلال وهي من الحديد تشبه الإبر الكبيرة.

ولبيوت الشعر حسب مقاساتها السائدة عادة عند البادية والمستعملة بكثرة ومنها:

مثومن: وهو الذي يقوم على ثمانية أقسام؛ وهذا نوع نادر لا يستعمل إلا لشيوخ القبائل؛ وكذا يستعمل في الشمال خاصة؛ لأن أرضهم الرعوية جيدة فلا يرحلون إلا بعد مدة طويلة؛ فلا يكلفهم هدمه أو بناؤه.

مسودس: أي أنه يقوم على ستة أقسام وهو الشائع لعلية القوم في وسط الجزيرة العربية.

مروبع: وهو الذي يقوم على عمودين أو ثلاثة أعمدة وهو لعامة البدو.

خدر: وهو أصغرها مقاسا؛ وأكثر من يستعمل الشاوي لأنه يساعده على الترحال في الأودية بحثا عن الكلأ لأغنامه؛ ولأنه سهل الحمل والبناء.

أما وصفهم لبيت الشعر من الخارج بعد أن يبنى فيقولون:

مروبع: وهو القائم على أربعة أعمدة بغض النظر عن طوله وهذا المروبع لعلية القوم منهم.

مثولث: أي قائم على ثلاثة أعمدة؛ بغض النظر عن الأطوال.

قطبتين: أي قائم على عمودين فقط؛ وهو لعامة الناس لخفته.

قطية واحدة: وهو ذو العمود الواحد فقط.

وبيت الشعر لـــه ما يثبته على الأرض لئلا تقتلعه الرياح؛ فهناك الأعمدة وكذا الأوتاد وهي الحبال التي تثبت في الطنب المغروس في الأرض وجمعها "أطناب" ومفردها طنب.

فإذا انتهى بناء البيت فإنهم يقومون بأخذ الحيطة لئلا يدخل المطر عليهم من الأرض؛ فيضعون فوق الذرى من أسفله ترابا ويجعلون لـــه مجرى ماء لكي يجنب الماء من دخول البيت؛ ويسمى " نيّ " وهي عربية فصحى.

ويقسم بيت الشعر إلى قسمين للرجال وللنساء؛ ويطلق على قسم الرجال " رقـــة "؛ وبها يكون محل لإيقاد نار القهوة وأدواتها؛ أما قسم النساء فهو للطبخ والنوم معاً؛ وتتأنق أغلب النساء في القاسم بين الرجال والنساء فيعملن من نفس الشعر ما يسمى "بجادا" وهو ذو ألوان مميزة.

والسكن عندهم في غير بيوت الشعر يكون فيما يسمى:

الحجية: وهي نوع من السكن بحيث يكون عبارة عن فليج من الشعر أو فليجين يرفعهما بأعواد للظل فقط؛ وقد تكون الحجية من الشجر أيضاً.

الدحل: وهي أن يحفر المسافر في الأرض ما يسمى دحلاً بحيث يغطي معظم جسمه داخل الأرض؛ خاصة في الشتاء إن لم يكن معه لحاف يتدفأ به؛ فيكون هذا الدحل حامياً له من البرد والحيوانات المفترسة؛ وعادة ما يغطي الفتحة إذا دخل الدحل بشجرة ذات شوك حتى تحميه.

والبادية يتجنبون البناء في الأرض المنخفضة خوفاً من السيل الذي يأتي من بعيد؛ فيختارون المرتفع من الأرض ويكون وجه البيت عادة إلى الجنوب؛ لأنه أهدأ للهواء الذي يجيء عادة من الشمال؛ ثم أن ذلك الاتجاه يكون سريعاً الظل صيفاً ودافيء شتاء؛ ولذلك صار النجديون بوجه عام الآن يختارون الأرض السكنية المتجهة للشرق أو الجنوب.

وبيوت الشعر عند البادية لها هيبتها التي تدل على هيبة ساكنيها؛ ولها مفروشاتها التي تصنع أيضاً من البيئة وهي عديدة؛ منها الشداد وهو متكأ يضعونه في صدر المجلس؛ خاصة إذا كان مجلس شيخ القبيلة أو من

فرسانها؛ ولا يجلس على الشداد إلا من له هيبة وذا قيمة وقدر عندهم[٢٦].

والشداد هو ما يستعمل كحامل للراكب على ظهر الجمل ولا يقتنيه إلا أمير أو فارس أو نحو ذلك.

وهناك من الفرش ما يسمى [الجاعد] وهو جلد لم ينزع منه الشعر؛ يكون فراشاً وثيراً للرجال في مجالسهم؛ ويستعملون غيره من الفرش البساط وهو أيضاً يصنع من الصوف أو الوبر؛ لكن أكثرهم لا يستعمل فرشاً في البيت أبداً؛ لأن الرجال يتحلقون على النار ولا يهتمون بالفرش الوثير لخشونتهم في الحياة.

ومتاع البيت تصنعه النساء عادة؛ فلا يمكن شراء شيء من الغير إلا الحديد وما يتعلق به؛ لأنهم يعتبرون الصناعة وطرق الحديد من المهن الوضيعة لديهم؛ وحتى أحذية الخيل لها من يعملها لهم من الصناع والموالي؛ لذا فقد عرف أن كل قبيلة لها صناع منها يعيشون معها مقابل الحماية لهم وإكرامهم وإهداء شيئاً لهم مقابل هذا العمل؛ لكنهم لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم لأنهم عادة ليسوا عرباً خلص مثل قبائل البادية.

---

(٢٦)هناك بعض القبائل إذا جاء الضيف وجلس على الشداد بعد قولهم له [اقلط] فإنهم يذبحون له؛ أما من يجلس حيث يجد مكاناً فلا يذبحون له؛ "والمرء حيث يضع نفسه!".

والمرأة البدوية تصنع كل ما تحتاج له في بيتها؛ وهو عادة ليس بالشيء المكلف أو المعقد في الصناعة؛ فهي تصنع المزاود[٢٧] والعدول والجاعد وغيره مما يحتاج له البيت البدوي.

أما النوم في بيت الشعر فإن نوع الفرش فيه تختلف بحسب حالة صاحبه؛ ولكن المشهور عندهم هو البساط الذي يأتي على شقفتين ويسمونه "ساحل" وهو فراش وغطاء للمرأة وزوجها وأطفالهما أيضاً؛ أما الوسادة فهي نادرة؛ ويستعيضون عنها بالرمل الذي يجعلونه على شكل وسادة؛ وقد شاع عندهم أخيراً السجاد المسمى [زولية] وهي شقفتان تخاط الواحدة في الأخرى.

والإضاءة في البيت البدوي معدومة تماماً؛ إلا أنهم في أواخر القرن الثالث عشر الهجري بدأوا يستعملون السراج الذي يشعل علي مادة الكيروسين الذي هو نادر وغير متوفر كثيراً؛ وجعلوا له بديلاً آخر وهو شحم الإبل أو الغنم؛ الذي يذاب ويترك حتى يتجمد ويسمونه "الودك[٢٨]".

(٢٧) المزاود جمع مزودة وهي حقيبة من الشعر تستعمل للراكب على الإبل أو متاع البيت الصغير؛ وعكسها العدل الذي هو أكبر منها.

(٢٨) عربية فصحى.

ومن محتويات بيت الشعر وأثاثه الخاص ما يسمى بالعيبة؛ وهي مصنوعة من الجلد وحجمها كبير [عادة تكون من جلد الجمل الرضيع المسمى حاشي] وهذه العيبة لعدة استعمالات؛ منها حفظ التمر حتى لا يصيبه السوس؛ وحفظ صغير الأثاث أيضاً وغيره من الأغراض؛ ومن أمثالهم "عود على العيبه ترى الصيد فيها" ويضرب لمن لم يجد صيداً فيعود إلى التمر.

وهناك ما يسمى الخرج وهو نوع من أنواع الحقائب لمن يركب الإبل للسفر الطويل؛ لكنه أيضاً من مقتنيات البيت لحفظ الأشياء الهامة؛ وهناك من أثاث البيت ما يسمى الوضم وهو خشب يصف لكي يوضع الأثاث فوقه خوفاً من العثة؛ فإذا رحلوا تركوه ومن أمثالهم العامية قولهم : " لحم على وضم " ويضرب لمن لا حراك فيه كالكسول ونحوه.

البادية والإبل

بما أن الإبل عند البادية هي الهدف المرغوب للناس، وهي قوام حياتهم فقد صارت رمزاً للعزة والأنفة والشموخ لدى البدوي؛ فانتشرت الحروب لكسبها من أهلها بأية وسيلة؛ وأهلها ذاتهم يدافعون عنها؛ فكان هناك عنف الهجوم وعنف الردع ؛ وهو ما جعل كثيرين منهم يوصفون بالشجاعة ويبرزون في ميادين الحروب التي أهلكتهم من أجل ناقة أو مورد ماء لها لا غير!. وسبب ذلك أن حياتهم المعيشية واقتصادهم في المجمل يقوم عليها؛ لذلك تجد الإبل في الجزيرة العربية بأعداد كبيرة وكثيرة لدى القبائل العربية فيها؛ لأنها أصبحت مهنة واقتصاداً وسلوك حياة؛ وعشقاً صحراوياً.

ولسبب هذه الحروب التي تحصل بينهم كثر التحالف بين القبائل ذاتها؛ وتلك الأحلاف تقوم على مجموعات أو حتى أفراد؛ وهدفها هو تكثير المدافعين أو المهاجمين من أجل الكسب؛ والذي يسمونه اصطلاحاً "الغنائم" ثم أن التحالف درء للضعيف في كنف القوي [وسوف نتكلم لاحقاً عن التحالف القبلي لدى عرب الجزيرة العربية].

وهناك اصطلاح بدوي أو لنقل عشائري شائع يستعمل بينهم؛ فيقولون بدوي ويقولون شاوي ويقولون حضري؛ وربما قالوا قروي.

فالأول: البدوي : ويعني به من يهتم بالإبل من حيث التربية والرعي والحفاظ عليها في الصحراء.

والثاني: الشاوي هو من يهتم بالأغنام بالذات.

فالبدوي له شأن أعظم من شأن الشاوي؛ لأن الجهد المبذول من البدوي أقوى وأعز وأثمن من الجهد الذي يبذله الشاوي؛ فالبدوي يرعى الإبل وهي أثمن شيء عند العرب بوجه عام؛ إذ أن سعر ناقة واحدة يساوي سعر قطيع كامل من الأغنام؛ ثم هو مطلوب منه الدفاع عنها؛ وهذا يتطلب شجاعة؛ ولذا فإنها هي مثيرة الحروب وهي ثمن الديات(٢٩).

أما الشاوي وهو صاحب الأغنام؛ فهو أكثر حظاً من البدوي؛ وذلك أن الأغنام تتوالد بسرعة أكثر من الإبل؛ ثم أنها ليست مثار حرب أو هدف كسب عند البادية؛ لذا ينظرون إلى الشاوي على أنه بائع ماهر وجامع للنقود أكثر من البدوي.

---

(٢٩) للدلالة على اهتمامهم بصاحب الإبل أنهم إذا ورد صاحب الإبل والغنم وأديرت القهوة؛ يلتفت المتحدث إلى راعي الإبل قائلاً: وش علومك يا راعي البل. ولا يسألون الشاوي عن شيء.

أما الحضري أو القروي فهو ساكن القرية وغير المتنقل عبر الصحراء ومهنته غالباً الزراعة أو التجارة أو الصناعة؛ وهو مسالم وغير محب للحروب؛ إلا إذا ابتلي في عقر داره فهو مدافع صلب؛ قال شاعرهم:-

قال: الزكاة وقلت: ذا بر حمر
قال: الجهاد وقلت: ذي دراهمه
قال المواجه قلت: عدلات القطر
من هاش دون العمر ما احد لايمه

والحروب ذاتها خلقت نوعاً من التنافر بين القبائل والحاضرة أيضاً؛ إذ لا مكان ولا قوة للضعيف منهم؛ وبالرغم من تلك الحروب فإن لهم ميزات حسنة في التعامل تجاه الخصم مثل احترامه وحقن دمه في عدة حالات لديهم؛ من أشهرها ما يسمونه [المنع] وهو أن يقول المغلوب على أمره: أني منيعك.

وفي هذه الحالة يحقن دمه ولكن ما معه يؤخذ فينجو بحياته فقط.

والإبل عند البادية نوعان من حيث سلالتها؛ إذ أن هناك الجمل العادي الذي هو الأكثر؛ وهي التي تربي لألبانها ولحومها وحمل الأثقال؛ لذلك يتكون منها أكثر إبل البادية.

والنوع الآخر هو الأصيل أو الحر أو الكريم على اختلاف المسميات له؛ وهو أقل من الأول ويستعمل عادة للسفر أو السباق؛ وهذا النوع يحرصون على أن لا يخالطه نسل هجين؛ لذلك يختارون الفحل المعرب عندهم.

ولأن الجمل هو سيد الصحراء وسفينتها؛ فهو جعل البدوي يعيش في الصحراء من أجله؛ وهو حيوان صبور على الحياة القاسية وحتى الظمأ؛ إذ أنه يصبر عن الماء شتاءً حوالي خمسين يوماً دون شرب؛ بعكس فصل الصيف الذي يصبر فيه من خمسة أيام إلى السبعة أيام حسب الأجواء ونوع الكلأ الذي يتغذى عليه؛ وإذا ظمىء الجمل ظمأ شديداً فإن عيناه تدمعان ويمتنع عن الرعي ويكثر حنينه؛ بل يمشي بنفسه للماء الذي يعرف أنه شرب منه؛ ويشرب الجمل عادة ما بين الخمسين إلى الثمانين لتراً من الماء إذا ورد عليه.

والإبل لها أشكال وأسماء مخصصة؛ ولها عاداتها ولها هيبتها وطرق تربيتها وعلاجها وغير ذلك مما يتعلق بها.

وأما مسميات الإبل حسب ألوانها فتختلف عندهم؛ لكن هناك لونان رئيسان هما:

المجاهيم: وهي التي لونها أسود أو يغلب عليه السواد؛ ولعل مجاهيم مشتق من الجهمة وهي آخر الليل

وهو شدة السواد والحلكة؛ ويتفرع منه السود والصفر والشهب والزرق.

والمغاتير: وهي التي يغلب اللون الأبيض على غيره؛ وتسمى الوضح؛ وربما أنه اشتقاق من الوضوح في وضحاء النهار؛ ويتفرع منها؛ البيض "وضح" والشعل والشقح والزرق؛ والمغاتير.

والبغث هي المقاربة للشقح.

وأما أعدادها فهي كالتالي:

نود: وهو من عشر إلى الخمس والعشرين أو الثلاثين تقريباً.

عصا: ما دون الخمسين وأكثر من الثلاثين بفحلها؛ فيقولون معه عصا.

طرش: وهو مجموعة من العصا؛ مهما كان العدد. على أن هناك من يقول ابل ونود وطرش ورعية وغير ذلك من الإصطلاحات المختلفة عندهم آنذاك.

ومسميات الإبل لديهم تختلف، ولكنها عادة تنسب إلى عرق معروف ؛ فإنهم يختارون أسماء للمجموعة وللواحدة؛ فيقولون للمجموعة من نوع الإبل مثلا:

سبلا[٣٠] أو الشرف أو بنات طفحان أو بنات عبدان أو الشعثاء أو النعامة أو غيرها من الأسماء الشهيرة.

أما أسماء المفرد من الإبل فيختار صاحبها الأسماء المحببة له؛ ويسمي كل ناقة بما يروق له؛ مثل رمانة وريمية والوضحاء وصياحة والبلها وغيرها من الأسماء.

وألوان الإبل حسب اللون غير الألوان الرئيسية منه ما يلي:

المجاهيم: وهي التي يغلب الأسود على غيره من الألوان.

الشعل: وهي التي لونها بني تخالطه الحمرة.

الصفر: وهي ما بين الأبيض والأسود لكن بها لون أصفر يغلب على غيره.

الزرق: بيضاء مخلوط لونها بأسود؛ لكن الغالب الأسود.

أما لون الواحدة من الإبل فله مسميات قد تناقض المجموعة ومنها:

---

(٣٠) سبلا اسم إبل الشيخ مسلط بن ربيعان: أما الشرف (بضم الشين المشددة وسكون الراء) فهي ابل ذات صيت وسلالة جيدة لآل أبو زمام من الدواسر وللدوشان من مطير "دريش" وكذا منها عند العجمان وكذا عند الشيخ محمد بن هندي؛ ولحب أهل الجزيرة لها واهتمامهم بهذا العرق فقد جاء رجل من -- -- العجمان اسمه الرقيص فوجد واحدة من الشرف صغيرة السن تكاد أن تموت فأخذها واهتم بها فتناسلت عنده مكونة مجموعة من نسلها؛ أما بنات طفحان وعبدان فلسبيع.

ملحاء: وهي الواحدة التي لونها أسود.
عفراء: التي لونها أبيض فاقع.
صفراء: وهي التي سوادها يغلب على بياضها.
حمراء: أقرب إلى اللون الأصفر.
شعلاء: لونها يميل إلى الصفرة في الغالب.
شقحاء: وهي التي لونها أغلبه الأبيض الذي يخالطه السواد أو الحمرة.

وأما أسماء الإبل من حيث السن فيقولون:

حوار: وهو المولود ولا زال يرضع أمه؛ حتى يبلغ عمره ٧ أشهر.
مفرود: وهو الذي لم يعد يرضع أمه؛ أي عمره سنة.
حق: وهو من جاء بعده مولود ترضعه أمه: وعمره سنتان.
لقي: وهو الثالث من المواليد بمعنى أن أمه ترضع الثاني؛ وعمره ثلاث سنين.
جذع: ما عمره أربع سنوات.
ثني: وهو الذي طلعت ثنيتاه.
سديس: وهو ما اكتملت أسنانه.

إلى غير ذلك من المسميات التي آخرها هرش وهو الجمل الكبير الذي بلغ عمراً طويلاً؛ أما الناقة الكبيرة فتسمى فاطر.

ويقولون : زمل ويعنون به ذكور الإبل المعدة للأحمال.

ويقولون : راحلة وهي المعدة للسفر؛ لكنها لا تحمل أثقالاً؛ وكذا يسمونها مطية من الإمتطاء.

وهناك ما يسمى "ركبي" وهو الجمل الذي يكون خاصاً براعي الإبل ويحمل زاده وماءه.

وهناك نياق مشهورة بالسرعة وهي التي تسمى الحرة أو الكريمة؛ وهي أقل من العادية كثرة كما قلنا؛ وعادة تكون للمهمات العاجلة كنقل الأخبار السريعة أو المهمة أو الإنذار وتسمى ناقة " النب " مثل الناقة المشهورة "مصيحة" عند آل سعود من قديم(٣١).

ويطلقون مسمى "جيش" على الإبل المعدة للركوب والأسفار وتمتاز بالسرعة غالباً.

والهجن الأصيلة معروفة النسب من الأم أو الأب؛ بل أن بعضهم حينما يلقح الناقة يشهد على ذلك من قومه؛ ولذلك جاءت نادرة أو لنقل قليلة ومعروفة عبر الجزيرة

---

(٣١) مصيحة: ناقة مشهورة بالسرعة كان الملك عبدالعزيز يستخدمها في المهمات العاجلة التي تحتاج للسرعة؛ فيرسل عليها رسولاً يبلغ الخبر العاجل.

العربية بوجه عام؛ ومن هذا النوع العمانية المشهورة وحرائر ابن ثاني صاحب قطر؛ والمهرية من المهرة في الخليج والشرارية والهتيمية والتيهية؛ بل اشتهر عن التيهية الجمال في تفاصيل الجسم؛ حتى أنهم يصفون البنت الجميلة على "بكرة التيه" فيقولون كأنها بكرة التيه.

وتعرف مواصفات الناقة الحرة بكثير من المزايا الجسمية؛ كأن تكون لامعة العينين وفيهما اتقاد وحياة نابضة؛ وتكون صغيرة المناسم والزور؛ ومنكباها بارزان؛ وأفخاذها ملفوفة كالمحالة؛ وسنامها مرتفعاً إلى أعلى ومرتكزاً على ظهرها متوازناً من الجهة العلوية؛ وصدرها عريض.

أما قولهم "مظهور" فيعنون مجموعة الإبل التي تحمل بيوت البادية الذين انتقلوا من مكان إلى آخر.

ويقولون "ركائب" ويعنون بها النوق التي يركبها مجموعة مترافقين في مهمة.

وفحل الإبل له مواصفات جسدية خاصة؛ وبها يعرف الفحل النجيب الذي يأتي نسله جيداً من غيره؛ فمن مواصفات أو وصف الفحل أن يكون رأسه كبيراً؛ وعيناه متقدتان بالحياة والقوة؛ ورقبته طويلة؛ وزوره بارز وممتليء؛ وسنامه واقفاً ومتعادلاً في هيئته؛ ومجموع جسمه متناسق مع بعضه؛ ويمتاز جسمه بالضخامة

والتناسق في نفس الوقت؛ وغير ذلك من الأوصاف التي تجعل الفحل متميزاً عن غيره وإذا رأيته تعرفه.

ولأن البادية يعتبرون الحليب غذاءهم الرئيس؛ فإنه عندما يقل عدد الحلائب من النياق يعمدون إلى ذبح المولود حتى يشربون الحليب دون منافس؛ لكن الناقة عادة إذا مات ولدها يشح حليبها؛ فيعمدون إلى خداعها بحشو جلد ولدها ويتركونه عندها حتى تظن أنه حياً؛ وهذا الجسد المحشو يسمونه "بو" وهو مسمى فصيح أيضاً؛ ومن أمثالهم للرجل الأجوف: قولهم "فلان بو" أو أنهم يعمدون إلى ترك حوار واحد ليرضع من عدة نوق فيسمون ذلك " تضييرا " ولعلها جاءت من كلمة ضير التي هي الظلم والجنف إلى غير الطريق السوي أو المناكفة.

وأما " الصر" فهو عدم تمكين الرضيع من الرضاعة بكثرة؛ حتى لا يستهلك حليب الناقة؛ بحيث يصرون حلمة الثدي لئلا يرضعها بالطريقة التي يرونها مناسبة؛ سواء بوضع ما يمسى " شمالة " وهو تغطية محالب الناقة بخرقة من الصوف؛ أو وضع ما يسمى " التوادي " مفردها تو داه؛ وهي خشبات صغيرة تلف على محلب الناقة؛ فإذا جاء الحوار ليرضع لم يتمكن من الرضاعة؛ وتلك الخشبات صغيرة وقصيرة جداً "وبها

يضربون المثل بالقصر للقامة فيقولون" رجل طول التوادة.

ولأن الجمل هو سيد الصحراء وصاحب البدوي وسفينته؛ فإن له منافع تنفع البادية غير الركوب أو اللبن؛ فهو يحمل خيمة البدوي وأولاده إلى مفازات بعيدة وصعبة العبور؛ هذا بالإضافة إلى غذاء البدوي الرئيس من الإبل وهو الحليب الذي يتفنن النساء في منتجاته.

والإبل عند البادية عنوان للكرم المتناهي؛ فهم يذبحون منها للضيوف ويستفيدون من لحومها؛ ومن وبر الإبل يصنعون كل ما يحتاجون إليه من أدوات تنفعهم مثل بيوت الشعر والملابس الثقيلة للشتاء؛ وكذا من جلودها يصنعون أحذيتهم وسيور دلائهم؛ بل الدلاء الكبيرة تصنع من جلد الحاشي؛ والبادية إذا لم يجدوا حطباً فإنهم يعمدون إلى بعر الإبل فيوقدون منه النار ويسمون تلك الأبعار " جلــه ".

وتقدر ثروة الرجل البدوي بما يمتلكه من إبل، حيث أنها هي رأسمال البادية وبؤرة اقتصادهم، فمنها يبيعون وبثمنها يشترون ما يريدون من غذاء في الحواضر؛ والبدوي في هذه الحالة ذكي حيث لا يعرض للبيع إلا الناقة الجزور وهي الكبيرة في السن؛ أو يعرض الجمل

الكبير المسمى بـ" الهرش " وهذا النوع من اللحوم قاسياً ويحتاج لطهي أكثر من غيره.

وحياة البادية تقوم على ثلاثي ضروري؛ وهو الأنعام والماء والكلأ؛ وبما أن الإبل هي قوام حياتهم فلا بد من حل حيال تلك الصحراء الملتهبة في وسط الجزيرة العربية؛ والتي تحتاج إلى ما يطفيء ذلك اللهب؛ وهو الماء الذي تقوم عليه الحياة؛ فمن الضروري أن نتحدث عن الماء وطرق تموينه لدى البادية؛ ولأنه أهم احتياجاتهم فقد نتج عن هذه الحاجة أن ابتدعت بعض القبائل آبار مياه لسقيا أنعامها سواء الإبل أو الأغنام؛ وهي التي يسمونها موارد أو بدع [بكسر الباء وسكون الدال المهملة]؛ لأن كل قبيلة لها مواردها الخاصة في ديارها التي تسيطر عليها؛ لكنهم أحياناً يسقون غيرهم من القبائل الأخرى من مبدأ الشهامة وزرع المعروف الذي لا يضيع كما يقولون.

ولأنهم في جو غير آمن فهم سريعو العمل وغير متقنين له؛ فيلجأون إلى استخدام مواليهم لحفر الآبار وموارد المياه وذلك في الغالب.

وتسميتهم لمواطن الماء كالتالي:

أ – الحسو: وهو ما طمن من الوادي وصار مجمعاً لبقايا سيول الوادي لمدة قصيرة: فيقومون بتبريح فوهته وتعميقها بقدر ما يمكن حتى تحفظ أكبر قدر من الماء؛

وهو يستعمل للشرب في الغالب؛ كملء قرب الماء أو شرب الأفراد أو الطبخ؛ أما كمورد للإبل فهو لا يفي بذلك لأنه ينتهي بسرعة؛ إلا إذا كانت الحالة حالة مطر قوي.

ب – الخريقة: وهي بئر ضيقة لا يتجاوز عرض فوهتها المتر والنصف؛ تخرق في الأرض التي هي مظنة الماء؛ فإذا وصلوا إلى مـــاء يعرفون أنه كثير الكمية قاموا بطيها[٣٢] حتى لا تنهدم من جرف الأودية ذات السيول لها.

ج – القلبان: جمع قليب وهي الآبار المعدة أصلاً لسقيا الماشية والإبل؛ وتكون عادة على شفى واد غير مرتفع الجوانب لكي يصلوا إلى الماء بسرعة وبكمية كبيرة؛ وتكون القلبان عادة أكثر من اثنتين لذلك جاء اسمها هكذا (قلبان: جمع قليب) لأنهم يقلبون تراب الأرض من أسفلها ليخرج إلى أعلاها.

د – العد: بكسر العين المهملة؛ وهي حفرة عميقة يجتمع فيها ماء المطر في أرض منخفضة فيشرب منه الناس ويأخذون منه ما يكفيهم للطبخ؛ ومع طول الزمن تتحول إلى بئر؛ لأن كل من يجيء يغرف منها غرفاً بأن

---

(٣٢) الطي: بناء داخل البئر بالحجارة حتى لا تنهدم.

يبرح عن بؤرة الماء فيأخذ التراب إل خارجها فتتعمق وهكذا حتى تكبر الحفرة وتتعمق لتكون بئراً.

هـ - الدحل: جمعه لديهم ادحول؛ وهو شق عميق متعرج في النفود يتفرع داخل الأرض إلى عدة شعب منها القريب ومنها الذي يبلغ طوله في عمق الأرض كيلومتر كاملاً بشكل بين الأفقي والعمودي؛ لذا يعتبر من أخطر الموارد لديهم؛ لأن الذي يدخله لا بد أن يكون معه سبب (حبل) يضعه في رجله ويمشي عبر المغارة حتى يصل الماء الذي هو بعيد ومتشعب المداخل فإذا أراد أن يعود تتبع الحبل وعرف طريقه الذي دخل عبره لكي يخرج إلى خارج الدحل.

والدحول تكثر في الدهناء والصمان؛ وكانت من موارد البادية؛ ولها قصص غريبة خاصة الذي ينزلون عبرها للبحث عن تجمعات الماء على عمق بعيد في داخل الأرض؛ حدثني رجل من المسنين قال: كدنا أن نهلك من الظمأ ونحن أهل خمس [أي خمسة رجال على خمس رواحل] وكنا في الصمان؛ فجئنا إلى دحل فيه ماء؛ ولم نكن نعرف طريقة النزول إلى داخل الدحول؛ فتبرعت لهم أن أنزل لأني أصغرهم سناً ومن العيب عند البادية أن لا يخدم الصغير الكبار في السن [يقولون في أمثالهم العامية: صغير السن يا جبرتهم] فأخذت حبلاً ونزلت ظناً مني أن

المسافة من عشرين متراً أو أقل؛ فجاءتني عدة مداخل واحترت مع أيها أدخل؛ وكنت أحمل قربة معي؛ فدخلت مع أوسط المداخل فاعتلى بي ثم نزل حتى انتهي طول الحبل الذي معي فربطت الحبل في إحدى الشغايا واستمريت في النزول حتى وصلت ما يشبه الغدير داخل الأرض؛ فملأت قربتي وصارت عبئاً على لضيق المدخل وكدت أن أضل الطريق لولا توفيق الله لي حتى وصلت الحبل الذي عرفت به بقية الطريق؛ وقد استغرق نزولي إلى خروجي أكثر من نصف الساعة لوعورة المداخل وتشعبها. قلت وهناك حكايات مات فيها كثيرون أو فقدوا في الدحول التي يضيع فيها الإنسان حينما ينزل فيها لكثرة الشعب المتفرعة داخل جوف الأرض.

و – القلات: جمع قلتة وهي تجويف صخري في الجبل وسط مصب الوادي الجبلي عادة؛ وتجيء على شكل قدر فتحفظ الماء مدة طويلة؛ وتكون عادة مورداً للأفراد؛ وتكثر عليها الطيور التي يصطادها الناس.

هـ – الغدران: جمع غدير وهو ما تجمع في الأرض بعد هطول الأمطار الغزيرة مباشرة؛ لكنه لا يمكث فوق سطح الأرض.

ز – الخباري: جمع خبراء وهو ما اجتمع من بعد نزول المطر في أرض منخفضة وكان أكثر من الغدير؛ ومن أشهرها في نجد " خباري وضحاء "[٣٣].

ولدى البادية تسميات للماء من حيث المذاق؛ فيقولون ماء قراح أي عذب؛ ويقولون هماج وهو الماء المالح؛ ويقولون شوب إذا كان مالحاً جداً لا يمكن شربه؛ ويقولون دبج أي بين الملوحة والحلاوة؛ وهو ما يمكن شربه عند الضرورة. وغاية الحلاوة لمذاق الماء يقولون عنه " أحلى من رايح السحاب " لأن المطر الذي يجيء مساء يعتقدون أنه عذب جداً.

أما وصفهم لنزول المطر فهو وصف عقلاني ودقيق؛ حتى أن الرجل إذا سأل الآخر عن المطر الذي نزل بأرض بعيدة يروي الخبر عنه بقوله: قال لي فلان بن فلان كذا.. وذلك لدقتهم في كميات المطر النازلة على الأرض حتى ينجعوا لها أو لا يرحلون؛ فمن أوصافهم لنزول المطر ما يلي:

قولهم: جانا رشاش؛ أي أنه يرش الأرض وليس بقوي.

---

(٣٣) خباري وضحاء من أشهر الأراضي التي يمكث فيها الماء من بعد نزول الأمطار؛ لذا صارت مـــورداً معروفاً لدى البادية.

وبعده في القوة؛ يقولون: جانا شاهد؛ أي أنهم يرون أثره في الأرض لكنه ليس قويا؛ ويعنون به المطر الذي تسيل منه التلاع الصغيرة فقط.

وبعده قولهم: جانا شاهد حديد؛ أي أن له حدة في النزول كانَ يسيل التلاع الكبيرة وبعض أجزاء من الأودية الصغيرة فقط.

ثم قولهم: جانا سيل سيل؛ هكذا؛ أي تسيل منه الأودية الصغيرة وتجري الكبيرة لكن ليس بكل طاقتها.

ثم قولهم: جانا سيل قوي: ويقصدون به السيل الذي يسيل الأودية كلها.

وإذا كان المطر قويا جدا قالوا: جانا سيل ما خلا دابة في جحرها؛ وهذا منتهى الوصل عندهم [أي أنه ملأ الأرض وحتى جحور الدواب دخلها].

لذلك فالبدوي لا يأخذ أخبار الأمطار من الحضري لأختلاف الهم ودقة الوصف بينهم للمطر وكمياته.

أما هيئة المطر وهو ينزل من السماء فيقولون عنه: هماليل؛ أي يصب بقوة ثم يقف ثم يعاود النزول وهكذا؛ ويقولون: ودان أي مطر صغير النقط لكنه مستمر؛ وهذا يستمر ليلاً إلى الصبح؛ ويقولون: هتان؛ وهو المطر الذي لا ينقطع ونقطة الماء النازلة أقوى وأكبر من الودان؛ ويقولون: مطر وبردي؛ أي مطر قوي معه برد؛ وهو

أقواها وأنفعها لسقيا الأرض؛ كما أنهم يقولون وسمي؛ وهو ما ينزل في وقت الوسم الذي تنبت معه كل النباتات البرية والكمأ؛ ويقولون مفخت؛ وهو ما جاء بعد الوسم؛ ويقولون ولي وهي المطر الذي يلي الوسم؛ أما الصيف ومطره فيقولون سحاب صيف وهو ما يجيء في أول الصيف ولا ينبت شيئاً سوى الشجيرات الميتة فيحييها. أما إذا بالت الإبل في الماء وخاصة مياه الغدير فيقولون مطروق؛ وإذا خالط المياه علق وغيره من الديدان التي لا تؤثر في طعمه فإنهم يحاولون عزلها ثم شربه؛ وأكثر خوفهم من العلق الذي يعض في داخل الحلق ويبقى فلا يمكن التخلص منه؛ وهذا العلق يثير مشاكل لدى الحيوانات التي تشرب الماء الذي به العلق.

وكم كانت المياه أيضاً سبباً في الحروب لديهم؛ خاصة إذا وردت الإبل الماء وكان عليه قبلهم من يروي؛ فإنه يحاول منعهم حتى يصدر؛ لئلا تشتبك دلاؤه مع دلاء الواردين بعدها، وذلك لكبر الدلاء التي يمتحون بهاء الماء؛ وقد سنوا لهم شيئاً اسمه "الفرزة" وهي الإنتظار حتى ينتهي من قبله؛ إذ يقول الوارد أولاً لمن جاء بعده:_

اقهر طرشك حتى تجيء فرزتك.

أي امنع عنا إبلك حتى يأتي وقت ورودك؛ وهذا قد يسبب مشاكل عندهم؛ خاصة من به عجلة من أمره.

والورود إلى الماء له عادات عندهم؛ خاصة وأن الإبل يشتد بها الظمأ بعد اليوم السابع أو الرابع إذا كان الجو حاراً؛ وهي تعرف مواردها وتذهب إليها حتى ولو لم تساق إليها؛ ومن عادة الإبل ونكائها أنها إذا اشتد بها الظمأ تعرف الماء الذي شربت منه ولو قبل عام فتمشي إليه.

وعند شفة البئر يوجد فتحة في الأرض قد تصل إلى ٥٠سم عمقاً أما عرضها فهو بقدر تلك الخشبة تسمى "المقام" وهي تشبه الدولاب توضع فيها المحالة حتى يمتحون بها الماء من الآبار؛ وكثيراً أيضاً ما تحصل مضاربات أو قتال عند هذا المقام؛ إذا قد يأتي من يسبق غيره على المقام فيضع المحالة فيه فيجيء من ينزعها؛ فيعتبر إهانة له ويبدأ الصراع الذي عادة يسيطر على تهدئته العقلاء منهم.

ورعاة الإبل ينقسمون يوم الورود للماء وسقيا إبلهم إلى عدة أقسام حسب الحاجة؛ فمنهم من يبقى مع الإبل لكي يرد بها للماء؛ ومنهم من يسبقهم للماء حتى يأخذ "الفرزة" ومنهم من يصلح الدلاء ويعدها ثم يأتي بها الفارز بقليل؛ إذ أن الفارز لا بد أن يكون معه دلو ومقام حتى يكون له دور في المنتظرين.

ومن عادات الوارد إلى الماء أن ينشد وهو على ظهر جمله وخلفه مجموعة الإبل؛ فيعرف أصحابه صوته ويستعدون لمتح الماء وملء الأحواض لسقيا الإبل التي تتزاحم عليها؛ ولأن الدلاء مصنوعة من جلد الحاشي "الرضيع من الإبل" فإن حجمها وكمية الماء الذي تحتويه يحتاج إلى شاب قوي البنية وشديد العضلات حتى يلتقفها من على الدولاب وينحرف بها نحو الحوض ليصبها فيه بسرعة فائقة لكي يغطي احتياج الإبل للماء الذي لا زالت تشرب منه؛ لذلك فلهم أهازيج تساعدهم على الحركة والنشاط.

وشرب الإبل من الماء يجيء على مرحلتين؛ الأولى الشرب حين ترد وتكتفي به؛ وبعد ذلك ترجع عن الحوض وتبرك؛ ثم إذا قامت للمغادرة يأتي شرب آخر أقل من الأول وما يسمونه "عل" بكسر العين المهملة وتشديد الدال المهملة بالكسر؛ من العل وهو الإعادة؛ فيقولون: شربت ثم علت.

وبعد العل لن يكون لها رغبة في الماء.

وفي الصيف يكون لكل قبيلة مكان مخصص يسمى مقطان؛ أي يقطنون فيه وقت الصيف وانصرام العشب؛ وأكثر ما يقطن البادية على القرى التي بها آبار المياه أو ما يسمونه "العد" بكسر العين؛ وهي أماكن آبار حفرتها

قبيلة في وسط مراعيها؛ مثل قرية التي تقع في مراعي مطير؛ وكانت قرية(٣٤) مقطاناً لمطير؛ لكنها تسمح بإستضافة القبائل معها: قال الشاعر:

ألا واهني اللي قطين على قريه
بشوفون مظنوني وانا البعد حاديني
أنا في بلاد لا مبيعه ولا شريه
بزا هله كلهم؛ وأنا بس جافيني
وأنا أبا أتولم وادمج القابله سريه
على كور مامون طليق الذراعيني(٣٥)

ومثل نفي التي تقع في عالية نجد والتي منها الشاعر ابن سبيل الباهلي الحضري مسكناً والعتيبي لهجة وشعوراً؛ والذي يصف دائماً نزول البادية في المقطان ورحيلهم بشعره الجميل؛ ومثل الشعراء؛ وغيرها من الأماكن في نجد بالذات التي تقطنها قبائل الدواسر وحرب ومطير وقحطان وغيرها من القبائل النجدية.

ونعود إلى حديثنا عن الإبل التي هي ثروة البدوي فنقول: أن البادية يحرصون على الإبل ذات المواصفات الجميلة في نظرهم؛ وكذا الألوان التي هي مفضلة عند

---

(٣٤) تقع قرية في شمال شرق المملكة الآن، وهي هجرة لمطير قريبة من الكويت؛ وكانت مكاناً لمكــوث البادية صيفاً؛ ويسمون ذلك مقطان.

(٣٥)لمحمد بن هزاع الديري الشيبي.

قبيلة دون أخرى؛ فتجد بعض القبائل يفضل الشقح على المجاهيم؛ والوضح على الزرق مثلاً؛ فمثلاً الدواسر والشيابين يفضلون الشقح أو الوضح؛ بينما تجد أغلب قحطان وأغلب حرب وعتيبة ومطير يفضلون المجاهيم على غيرها؛ وربما كان التعود له دوره في ذلك الإختيار أو التفضيل.

البادية والخيل

تعتبر الخيل عند البادية شيئاً مهماً؛ وعنصراً من عناصر التفوق في الحروب؛ وأكثر من يحب الخيل الفرسان الذين يهتمون بها أيما اهتمام؛ بل أن تغذيتها المكلفة تزيدهم تعلقاً بها؛ وقد يؤثرونها على أنفسهم؛ بل أنها تحتاج إلى خدمة خاصة؛ وقد قال العرب الأوائل "ثلاثة أنواع من الخدمة لا تعيب الرجل، خدمته لبيته؛ وخدمته لفرسه، وخدمته لضيفه".

والخيل الأصيلة عند البادية لها أنساب من حيث الأب والأم؛ وهي أنساب معروفة ومشهورة وتسمى مرابط؛ إذ اشتهر لدى كل قبيلة مرابط خاصة بها؛ مثل مرابط الخيل عند مطير وحرب وهي كثيرة وعند عتيبة وقحطان والبقوم وكل القبائل البدوية؛ ولذلك تختلف أقيام الخيل بإختلاف أنسابها؛ وإن كان الغالب عندهم أنهم يسلبونها بطريقة الحرب؛ وذلك برمي صاحبها عنها في المعركة؛ وتسمى حينها " قلاعة "؛ وهي مأخوذة من قلع الشجرة؛ أي أن الفارس قلع خيالها منها وأصبحت له؛ أما التي توجد في أرض المعركة دون خيال ولا يعرف قاتله فتسمى المارج؛ والمارج تعتبر من نصيب شيخ القبيلة.

ومن سلالات الخيل عند البادية الصقلاوية والمعنقية والحمدانية والهدباء والصويتية والربد وكروش والخرساء والدهماء وغيرها من الأسماء المشهورة في النسب.

وقد ذكر الشيخ حمد الجاسر أنواعاً من الخيل عند القبائل العربية في الجزيرة العربية منها:

عند البقوم مربط خيل عند الشيخ ابن جرشان من مرابط الكحيلة الحنيف ؛ وكذا مربط عند دحيم الغندور، من نوع كروش الغندور؛ والزهية عند رشيد بن جرشان[٣٦].

وعند حرب كحيلة العبية وكحيلة البنت ومربطها للدباغ؛ والدهم لإبن مضيان؛ وللمحاميد مربط هدباء هقشة؛ وحمدانيات ابن غراب عند الفرده؛ وكذا الصويتيات.

وعند بني خالد مرابط من خيل الدهماء؛ كما كان عند بزيع بن عريعر مربط من الصقلاوية؛ كما كان لديهم مرابط أخرى.

والدواسر عندهم مربط خيل من الصقلاويات عند ابن قويد معدي؛ ولدى سعود الشويعر الدوسري مربط من كحيلة وبره[٣٧].

---

(٣٦) الجاسر، حمد، أصول الخيل العربية الحديثة، ص ٩٩ ط ١٤١٥هـ.

(٣٧) مصدر سابق ص ١٠٣.

وعند سبيع مربط من الربد وكذا كحيلة وبرة عند حريب التمر؛ وكذا عند آل أبو ثنين وابن شويه مربط من كحيلة الشوافة؛ ومن خيلهم العبيات الشراكية عند الصيـــيفي؛ وعند السهول مربط لكروش عند ابـــن جلعود[٣٨].

وعند شمر مربط مصيخ بن خليل من الصقلاويات الزرق، ومربط الذويب من الصقلاويات الشقر، ومربط ابن ميدان من الصقلاويات السمنيات؛ ومربط عياده الرزني من الربد؛ وعند آل رمال الرماليات؛ وكذا مرابط الخيل المتنوعة عند الرشيد[٣٩].

وعند عتيبة مربط الحرقاء عند الهيضل؛ ومن خيل العبيسة عند ابن حميد؛ وعند سلطان بن ربيعان مرابط عدة؛ وعند ابن فهيد الشيباني كذلك؛ وكذا عند العياشي من السنوات من الروسان، وكذا المحني؛ وكذا عند مشعان البراق[٤٠].

وعند العجمان الدهم الشهوانيات عند رجل يدعى كنهر عرفت باسمه؛ ومن خيلهم كحيلة العجوز؛ ولدى ابن حثلين كحيلة أم صرير وكحيلة العبيسة وكذا كحيلة ابن

---

(٣٨) مصدر سابق، ص ١٠٤ و ١٠٥.

(٣٩) مصدر سابق، ص ١٠٦ و ١٠٧.

(٤٠) مصدر سابق، ص ١١٩.

جرشان؛ وعند ابن وبرة كحيلة ابن وبره وكحيلة الرعيل؛ وعند ابن فدغم كحيلة الفجري؛ ومن كحيلة ابن جرشان عند ابن حزام العجـــمي؛ وكذا عند ابن حـــبيش مربط من الربد[٤١].

وعند قحطان من الدهم وكحيلة ابن مريوم عند الشيخ ابن قرمله؛ وعند ابن وريك الدهم وكحيلة ابن عاقص وعند ابن شري كحيلة المريوم؛ وعن ابن منكر وابن هشام من كحيلة مشيريق؛ واشتهرت الحرقاء ونايف كخيل عند ابن هادي[٤٢].

وعند مطير مربط الربد للدوشان؛ ومربط ربداء الوصالي من الجهضان؛ وعند المريخي من كحيلة النواق والدهم؛ وعند أبو صفرة عبيات الهنيدس؛ وعند ابن جلعود من البراعصة بعض الربد؛ وكذا مرابط مختلفة ومتعددة عند الجرو وابن حجي وشوادري العبياني وابن خزام وابن جبيع وابن حنايا وابن زريبان وابن مسيلم وابن بصيص[٤٣].

ومن عاداتهم أن من يبيع فرساً فإنه لا يبيع نسلها الذي يجيء منها بعد البيع مباشرة؛ ويسمى " مثنوي " أي

---

(٤١) مصدر سابق، ص ١٢٢ و ١٢٣.

(٤٢) مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٤٣)مصدر سابق، ص ١٤١ و ١٤٢.

استثناء من المبيع؛ كأن يشترط المولود الأول له أو هكذا؛ خاصة إذا كانت من سلالة نادرة أو معروفة بجريها وتحملها. ومن أمثالهم إذا طلب الرجل من الآخر شيئاً وقال: جاك. ثم أراد أن يتكلم الواهب بعبارة أخرى يسرع صاحبه فيقول: لا تحط فيها مثنوي مهيبب فرس.

أي لا تجعل هناك إلا الاستثنائية.

وهم يحرصون على الحصان الأصيل ليكون معداً لكي ينزو على الفرس فيأتي نسله جيداً؛ ومن مشاهير الأحصنة في نجد الحصان " هدبان "[٤٤] وهو حصان مشهور عند الشيخ سلطان بن ربيعان؛ ومنه تناسل خيل عند عتيبة والدواسر " عند ابن قويد " وغيرهم.

وكانت الخيل هي عماد القبيلة ومنجدها عند الهلع؛ والقبيلة القوية تقاس قوتها بكثرة خيولها؛ ولذلك كان لها شأن واهتمام عند البادية؛ ولها مواصفات خاصة يهتمون بها ويعرفون أصالتها من خلال صفات خلقية بها؛ قال بركات الشريف:_

يقول بركات والذي له

جواد ما تدنى للمبيعه

قصير فينها وافي جماها

كبير راس منتجها رفيعه

---

[٤٤] أنظر كتاب أصول الخيل العربية الحديثة لحمد الجاسر، ص ٣٠٩، ط ١٤١٥هـ.

معارفها كما سلة حراير

ولها مناخر جلغ وسيعه

وحاركها كما ذيب موايق

على الرعيان ضار للقديعه

لها صدر وسيع الشق راهي

منفجـــة حواجبـــها تليعـــه

مليح وصفها واف اشبرها

ويبري العين شوفه بالطليعة

منتجة الفيا من خيل نجد

طفوح الجري لينـــــة الطبيعة

ومن أمثالهم العامية التي تدل على علو مقام الخيل عندهم قولهم " الخيل عز للرجال وهيبة ".

وبما أن الخيل نادرة عند عامة الناس؛ فلا يقتنيها إلا من يستطيع تحمل مصاريفها الغالية؛ ولذا تخصص رجال في حيافتها[٤٥] وأخذها من أهلها رغم تحفظهم عليها؛ وقد اشتهر أناس في تلك المسألة وعرفهم القاصي والداني حتى صاروا يحذرون منهم؛ وقد جاء أحد شيوخ القبائل إلى قبيلة أخرى وحل ضيفاً عندهم فوجد رجلاً مشهوراً بالحيافة؛ فقال الشيخ له: يا فلان؛ هل تستطيع

(٤٥) الحيافة هي المخاتلة وخاصة ليلاً حيث يجيء إلى مربط الفرس ويأخذها؛ أي يسرقها؛ وقد خففـــوا المفردة إلى الحيافة تأدباً أو تبريراً.

أخذ فرس من بني فلان؟ إنني أعطيك الإذن بذلك إن استطعت.

فقال الرجل: سوف أريك ذلك.

ولما وصل الشيخ ديار قومه فإذا بالرجل يصل معه دون أن يعرف الشيخ؛ فيأخذ فرساً مشهورة ومن أطيب خيولهم؛ فمر على بيت الشيخ وصاح له قائلاً: يا شيخ فلان؛ تراني أخذت الفرس الفلانية وهاأنذا أخبرك.

فقال الشيخ له: انزل منها يا فلان وعليك الله وأمانه.

فقال: الأمان تحتي؛ ولكن سوف أذهب بها لقومي.

قال الشيخ: أدخلك على الله لا تقطع بني "..." من صفوة خيلهم؛ ردها ولك عشر من الإبل.

قال: لن أردها حتى تجيء عندنا ونكرمك ثم نهديها لك.

فلحق به الشيخ من باكر؛ وأكرموه وعاد بالفرس الشهيرة[٤٦].

والفرس أو الجياد بوجه عام لها تغذية خاصة ومكلفة؛ فيقوم بعضهم بتخصيص حليب ناقة حلوب لها؛ ويشترون لها البر والشعير والتمر وغيره من الغذاء المكلف يومها؛ قال شاعرهم[٤٧]:

---

(٤٦) القصة كاملة عند العبيد "النجم اللامع للنوادر جامع" مخطوط.

(٤٧) للشيخ مناحي مضعل "راعي ليرصا".

أشري لها من غالي بالسوق

الزين تزهاها وهي تزهاه

وأحياناً يمنعون الحصان عن النزو على الفرس حتى لا تترهل وتكون بصحتها الكاملة؛ ثم أنه ليس كل حصان يأتي نسله أصيلاً أيضاً؛ قال شاعرهم:

أمك نحيت الحصن عنها زمانين

يوم انتحوا بأبوك وأبعد عليه(٤٨)

ومن شدة حرصهم على الخيل فإنهم قد صمموا لأيديها سلسلة بها قفل يوضح عند مبيتها حتى لا يختلسها لصوص الخيول؛ حتى أن بعضهم يجعل مراحها "أي مكان مبيتها" في رفة البيت؛ خوفاً عليها من اللصوص؛ وخوفاً عليها أيضاً من أن ينزو عليها حصان ليس أصيلاً.

وفي الشتاء يحرصون على تدفئتها؛ بل أن بعضهم يخصص لها لباساً يضفيه على جسد الفرس أو الحصان.

وكان الحصان النجيب معرضاً لأن يعتدي عليه خلسة صاحب خيل فيأخذه لينزو على أفراسه.

وقد اشتهرت بعض القبائل أو الأسر بمرابط خيل يحرصون على أن لا تتسلل إلى غيرهم؛ سواء بالبيع أو الكسب؛ وكذا اشتهر عند القبائل من يسمونهم "الصناع"

(٤٨) للشيخ البراق من عنيـة.

بأنهم يربون الخيول ويهتمون بها لبيعها على فرسان القبيلة؛ وكانت بضاعة رابحة جداً.

وكان عند الشيخ محمد بن هادي القحطاني حصان معروف في الجزيرة العربية اسمه حرقان؛ وكان يعادل عنده الشيء الكثير؛ حتى أن الشريف طلبه منه فأبى؛ ثم جاء طلبه عن طريق الشيخ تركي بن حميد؛ لكن ابن هادي قال:_ أدخل على الله؛ والله ما يفشح أبو طربوش على حرقان. وأخيراً مات الحصان الثمين[٤٩]؛ ولعل الحرب التي قامت بين الشيخين ابن هادي وابن حميد سببها ذلك الحصان وقعود زبن الذي أخذته قحطان مما أغضب الشيخ تركي رحمه الله.

وقد جاءت بعثة من مصر لتتبع أصول الخيل العربية في السبعينات من القرن الثالث عشر الهجري وجمعت الكثير عن أصول الخيل العربية في الجزيرة العربية؛ وقد قابلت البعثة أيامها عدداً من شيوخ القبائل والأسر التي تمتلك مرابط خيول؛ وأعدت مرجعا نفيسا نشر الشيخ حمد الجاسر معظمه في كتاب أسماه أصول الخيل العربية الحديثة[٥٠].

---

(٤٩) لمزيد من المعلومات عن الحصان "أنظر مخطوطة العبيد".

(٥٠)صدر هذا الكتاب عن دار العرب للنشر بعنوان أصول الخيل العربية الحديثة. قال عنه الشيخ حمد الجاسر: وهو كتاب يعد مصدراً من أوثق المصادر؛ وأوفاها عن أصول الخيل الحديثة؛ ألف في النصف الثاني

وبالرغم من اهتمام القبائل العربية بالخيل إلا أنها اليوم أصبحت نادرة؛ بل أن البيوتات العربية التي كانت معروفة بأن لديها مرابط خيل لم تعد تمتلك منها شيئاً الآن؛ وربما أن الحضارة جعلت الناس ينصرفون عن الخيل لعدم استعمالها اليوم إلا في شكل سباق أو عرض أو نحوه؛ ثم لكثرة مصاريف تغذيتها المكلفة جداً.

وللفرس الأصيل مواصفات جسمية إذا اكتملت قيل عنها "أصيل".

ومن تلك المواصفات ما يأتي:

أ – الرأس: يكون متجرداً من اللحم؛ معتدلاً أو يميل إلى الصغر؛ وجلده ناعم؛ وخال من الوبر.

ب – الناصية: ويسمونها الشعفة؛ ويستحسن أن يكون شعرها مسترسلاً على الجبهة؛ لكي يحمي أعينها من الذباب والشمس؛ وأن يكون الشعر صافياً طويلاً أيضاً.

ج – الأذنان: أن تكونا رقيقتين في الطرف؛ وصافيتان وملساءان.

-- من القرن الثالث عشر الهجري؛ في عهد الإمام فيصل بن تركي بعد عودته من مصر؛ حين أهدى إلى عباس باشا عدداً من الخيل فأرسل إليه يسأله عن أصولها؛ فما كان من فيصل رحمه الله إلا أن بعث برسل عباس إلى القبائل التي تهتم بأصول الخيل.

د – الجبهة: أحسنها ما كانت صبحاء أي في وسطها بياض؛ وعريضة ومسطحة وواسعة ومستديرة أيضاً.

هـ – العنق: تكون متناسقة مع الجسم طويلة رقيقة؛ تتسع تدريجياً ناحية الكتفين والصدر؛ وطول العنق من علامات الخيل العتاق.

و – الظهر: الصهوة: يكون قوياً متيناً معتدل الصلب؛ وليس محدباً ولا مقعراً.

ومما يستدل به على جودة الخيل "لين أعطافه؛ ولين عنقه؛ واطراد متنه؛ وشدة تدافعه؛ وسرعة قبض رجليه؛.. وشدة كعبيه وتمكنهما؛ ويستدل على لين أعطافه بأن تكون معاقده كلها وفصوص وفقار ظهره لينة في تمعكه وعنقه والتفاته؛ إلا الكعبين خاصة فإن لين الكعبين ليس بجيد لئلا يتلويا في مشيه وعدوه" إلى غير ذلك من الصفات التي يعرفها الخبراء بالخيل عادة(٥١).

---

(٥١) العني، فيصل حسين، الخيل ط١، ص ٢٤ – ٢٦ وص ٤٩.

الغــذاء عند البادية

لعل أهم وأنفع غذاء لدى البادية هو حليب الإبل أو لبنها؛ ومع اللبن يستعملون التمر الذي يسمونه مسامير الركب؛ وبما أن اللبن هو الشراب والغذاء؛ فهم يعملونه بعدة طرق وأنواع؛ ولديهم ما يسمى [الصخين] وهو حليب الإبل الذي يغلى على النار؛ وهذا هو الذي يجتمعون عليه عادة في المساء خاصة وقت البرد؛ لأن القهوة المستعملة حالياً كانت غير معروفة عندهم.

وأما حليب الإبل فهو مائدة رئيسة لهم؛ ويعتبر غذاء كاملاً؛ فهو من أجود الغذاء للجسم؛ بل كانوا يعالجون به أهل القرى خاصة من أصابته علة في بطنه؛ إذ يكون له حمية على حليب ناقة بكر فتغسل البطن مما فيه؛ ويسمون ما حلب رأساً من الناقة حليباً: أما بعد أن يروب ويخض فيسمونه لبناً[٥٢]؛ أما إذا أبطأ وتغير طعمه فيسمونه شنانه؛ وكذا حليب الأغنام الذي يستعملونه عادة للعلاج والحمية لديهم؛ ومن عاداتهم أن الطفل الرضيع إذا ماتت أمه ولم يجدوا مرضعة فإنهم يرضعونه حليب الماعز فقط "دلت الدراسات الحديثة على أنه أقرب أنواع الحليب إلى حليب

---

(٥٢) أعتقد أنه عكس التسمية الصحيحة؛ إذ ورد في القرآن أن ما حلب يسمى لبناً.

الأم". وللحليب واللبن عدة منتجات يستخلصونها منه؛ ومنها ما يلي:

السمن: وهو أكثر منتجات اللبن؛ لكنه معقد الصنع ويحتاج إلى سعة بال وصبر ووقت؛ وتقوم بتلك المهمة ربة البيت أو مولاتها؛ إذ أن اللبن كثير عندهم ويزيد عن استهلاكهم اليومي؛ خاصة وقت الربيع؛ فيقومون بتحويله إلى سمن أو كما يسمونه دهن؛ وذلك باستخلاص الزبد من اللبن ثم غليه مع البر حتى يتحول إلى سمن. وكانوا يضعون مع السمن بعض المنكهات من الأعشاب مثل البروق "بفتح الباء وسكون القاف وفتح الواو" وهو نبات ربيعي له مذاق خاص ويحول اللون إلى أصفر ويعطيه نكهة جيدة.

أما الأقط: فهو منتج آخر من منتجات الألبان وهو كثير عندهم خاصة في مواسم الربيع؛ وهو نوع من أنواع الجبن المعروفة الآن؛ لكنه يجيء جافاً؛ وهو أسهل في الصنع من السمن؛ إذ أنه مجرد وضع اللبن على النار ويترك يغلي حتى تتبخر منه مادة الماء؛ وبعدها ينشر على شكل أقراص في مكان نظيف؛ وكثيراً ما يستخدمون أعلى بيت الشعر لتجفيف الأقط؛ فترى بيوت النساء الحسنات التدبير بيضاء من أعلاها وذلك البياض هو الأقط المعد للتجفيف (يسمون المرأة الحسنة التدبير ظفرة

ويسمونه نقيضتها رفلا) فإذا جف فإنهم يقومون بحفظه في عدل؛ ولذلك تجد أكثر ما يهدون للحاضرة هي تلك العدول من الأقط؛ وقد تكون ثمنا للمقايضات.

أما الزبد: فيستخرجونه بعد خض الحليب حتى يتحول إلى لبن فتطفوا الزبدة على السطح ويقومون بقشدها وعزلها عن اللبن.

وللبادية طرق في تنويع المشروبات التي أهمها اللبن والحليب؛ فهم يستعملون الأقط كمشروب مرطب وخاصة في شهر رمضان؛ إذ يقومون بتنقيع الأقط في الماء حتى تذهب صلابته ثم يزيدون الماء ويخلطون الأقط معه؛ ويسمون ذلك "مريسة" وكذا مع التمر يستعملون نفس الطريقة: وتسمى مريسة تمر. ومن مشروباتهم الحارة المرق الذي هو خلاصة اللحم وهو ليس متوفراً بكثرة الحليب.

أما القهوة العربية فلم يعرفوها إلا متأخرين عن الحاضرة الذين كانوا يشربونها قبلهم، وكان البادية يرون في شربها ما ينافي القوة والصلابة؛ فقد قال شاعر من البادية:

.... لين ادبحوا شرابة القهاوي

[وأدبحوا تعني طأطأوا رؤسهم وولوا؛ وشرابة أي فعالة من كثرة الشرب للقهوة؛ أما القهاوي فهي جمع قهوة].

وهو بقوله هذا كـأنه يعيرهم ويلمـزهم بشرب القهوة[٥٣].

لكن القهوة في منتصف القرن الثالث عشر الهجري صارت مستعملة بكثرة عند البادية؛ حتى صار لها طقوسها وعاداتها التي تكون مقرونة بالكرم وعلو الشأن عندهم.

وقد صارت هي لب اجتماعهم ومسامراتهم ونخب النصر عندهم حتى علا شأنها ورجح ميزانها مع قلتها آنذاك.

ومصدر القهوة هو اليمن الذي يكثر استيراد القهوة منه؛ لكن في الحجاز وغيرها من المدن الساحلية تأتيهم من كل مكان يمكنهم الاستيراد منه.

وأدوات القهوة هي الدلال (جمع دلة) وهذه الدلال لها ميزة احترام لأنها تمثل المجلس وصاحبه وعرف القبيلة؛ فلا يمكن أن تستعمل لغير القهوة ولا يمكن أن

---

(٥٣)كان هناك خلاف بين العلماء في شرب القهوة أول مجيئها لوسط الجزيرة العربية؛ فمنهم من حرمها ومنهم من أحلها. وقد قال صاحب (تاريخ مكة) الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله في كتابه ما يلـي: وفي هذا العهد [يقصد عهد الشريف مسـعود بن ادريس ١٠٤٠هـ] شاع شرب القهوة في مكة والذي أظنـه انتقل إليها من اليمن؛ وقد حاربها علماء مكة حرباً شديداً وافق بعضهم بتحريمها؛ وقال انها خمرة مسكرة فصدر الأمر بجلد بائعها وطابخها وشاربها؛ فكان الناس يتعاطونها في أقبية بعض البيوت..) تاريخ مكة، ص ٣٦٥، ط٧.

تمتهن عندهم؛ والدلال تكون على عدد مراحل صنع القهوة النجدية وهي:

ملقمة : وهي دلة كبيرة توضع فيها القهوة والماء وتبقى على النار حتى تغلي وتكون صالحة للشرب ثم توضع في دلة أخرى تسمى **مبهارة أو مبهرة أو مزل**: وهي دلة أصغر من الملقمة ويوضع فيها الحب هال ويسمونه البهار أو الهيل حتى إذا غلت على النار وفاحت رائحة الهيل بدأوا في إدارتها على الجالسين.

وإدارة القهوة لها عادات واحترام متشدد فيها عندهم: إذ يبدأ من يصب القهوة بأبيه عادة؛ لكن الأب يكون مهذباً فيشير إلى من هو أكبر منه سناً أو قدراً؛ وتمسك الدلة باليد اليسرى وتمسك الفناجين باليد اليمنى لكي يمد الفنجان باليمين؛ وإذا ما مد أحد القهوة باليسرى فلن يأخذ الفنجان منه أحد؛ وقد يلاقي عقاباً من الممدود له الفنجان؛ لأن في ذلك إهانة له؛ لكنهم قد يتجاوزون في ذلك لعذر بين وواضح كأن يكون الذي يصب القهوة به عاهة في اليمين كالكسر أو الشلل؛ فيقولون له حين يمدها باليسار: يسارك يمين وعجفاك سمين.

والعجفاء الضعيفة من الذبائح.

وكانت العادة عندهم أن يأتي الشخص إلى مجلس من يمتلك أدوات القهوة (كانت الدلال عند كبار القوم

لندرتها) ويأتي معه بقهوة لم تحمص وحب هال فقط؛ فإذا شربوا قهوة مضيفهم قال من معه قهوة وهيل:

: _ هات المحماس[٥٤].

ثم يضع القهوة فيه ليبدأ تحميصها وإدارتها من جديد؛ والمحماس هو أداة تحميص القهوة.

ويسمون القهوة الجديدة بكراً؛ ويسمون التي تزاد عليها وتغلي ثانية ثنو: أما بقايا القهوة فيسمى سريبا لأنه آخر ما يتسرب من الدلة الكبيرة.

وقال شاعرهم[٥٥]:ـ

قم سو فنجال ترى الرأس مصدوع

صفه وزله عن سريب الخموعي

فنجال فيه مخومس الكيف مجموع

بدلال يشدن الغباس الوقوعي

ولا جاك بالمجلس سنافي وبالوع

عدة على الطيب وكب البلوعي

فهو هنا يأمر مولاه بأن يقوم بعمل القهوة التي تعود عليها بحكم مادة الكافيين فيها؛ إذ يقول أن رأسه مصدوعا أي به صداع؛ ومعنى زله أي أهريق القهوة من الدلة الكبرى في المزل أو المبهرة؛ وإياك وان تتسرب بقايا

---

(٥٤) يقولون القحطانيون في لهجتهم بدلاً من "هات" زقف: أي أقذف.

(٥٥) للشيخ ذعار بن مشاري ابن ربيعان.

القهوة في آخر الدلة؛ لأن السريب لا يشربه إلا الخمع وهو الرديء الذي يعيش على البقايا؛ أما معنى مخومس فإنهم كانوا يضيفون إلى حب الهال أربعة أجناس من البهارات ومنها الزعفران والقرفة واللبان والزباد وغيرها؛ وكلمة الغباس تعني نوعا من الطيور لونها أبيض فاقع لأن لون الدلال عندهم كان أبيض؛ والسنافي هو الطيب وأما البلوع فهو الذي يبتلع ما يجده دون تمييز؛ وهو لا صفة طيبة فيه كالشجاعة أو الكرم؛ وأما مفردة "كب" فتعني دع أو أترك وهي من لهجة عتيبة.

وكان شربهم للقهوة يعتبرونه عادة محترمة عندهم؛ ولما جاء الشاي كانوا يفضلون القهوة عليه ويرون أن شرب القهوة أفضل من شرب الشاي: قال الشاعر:

أشرب الفنجال واكب البياله

طيب واحب سلم الطيبين

وكلمة اكب أي أترك ؛ وسلم تعني عرف أو عادة.

وكانوا ينتقدون من لا يكثر الهيل في القهوة؛ لأن الهيل يجعل رائحتها أزكي وأكثر متعة؛ أما قلة الهيل فلا تعطي القهوة مذاقا جيدا؛ ثم هو غالي الثمن فيبخل به البعض أو لنقل يوفر فيه؛ قال شاعرهم منتقداً من لا يضع في القهوة هيلاً: الدلة اللي ما تبهر من الهيل

مثل العجوز اللي خبيث نسمها

وكلمة اللي بمعنى التي؛ ونسمعها تعني رائحة فمها؛ لأن القهوة بدون الهيل لا يكون مذاقها أو رائحتها ممتعاً.

وطريقة عمل القهوة تمر بعدة مراحل هي:

إيقاد النار أولاً حتى يجيء لها جمر؛ ثم اختيار الماء العذب ووضعه في "الملقمة" ثم تركها على النار كي تغلي وهو في نفس الوقت يحمص القهوة؛ ثم يطحنها في النجر "الهاون" ثم يضعها في الماء الذي في الملقمة والذي بدأ يغلي؛ ويتركها عدة دقائق حتى تكون جاهزة؛ وهو في نفس الوقت يدق الهيل في النجر الذي له صوت يجذب أهل القهوة إليها؛ وبعد ذلك يصبها في دلة أصغر هي المبهارة أو المزل وتبقى تغلي حتى تفوح رائحة الهيل؛ ويزيحها عن النار ويتركها عدة ثوان حتى تهدأ وتكون صافية؛ حين ذاك يبدأ في صبها في الفناجين.

وللهاون " النجر" حكايات[٥٦] كثيرة لندرته ولأنه يأتي من خارج الحدود فهو نادر وسعره مرتفع ولا يقتنيه إلا المقتدر مالياً، فكان عنوان ثراء وكرم ورجولة عندهم؛

---

(٥٦) كان عند "مطوع نفي" واسمه سعد؛ نجراً فكان كل يريد شراء ذلك النجر لكنه كان يمانع في بيعه؛ وقد عرض عليه شارع الوهاب مبلغاً مغرياً لكنه أبى بيعه وقال:

النجر سامه شارع الوهاب سامه وكثر مير أنا عييت

يا الله لا تاكل على الأسباب وان كان بعت النجر بعت البيت

وسامه دغيليب بن خنيصر الأسعدي فأبى أيضاً وقال:

نجر المطوع يوم سامه دغيليب قالوا تبيعه قلت والله ما ابيعه

ياع بن جونا هل الفطر الشيب أجواد مرفقهم عدو الشريعه

أول قراهم طبختين ترحيب يسهل بها الخاطر بنفس رفيعه

وكان هناك رجل عنده نجر وقد حاول الكثيرون شراءه وإغراء صاحبه بالعروض مقابل بيعه لكنه أبى؛ وكان شاعراً فقال أبيعات شعر في ذلك الشأن.

وكانت القهوة معروفة عند الحاضرة قبل البادية؛ لكن البادية فتنوا بها أشد من الحاضرة؛ ولا زالت القهوة عنوان الكرم عند أهل الجزيرة بوجه عام حتى اليوم؛ بل أصبحت عادة يتوارثونها، ومن النقص أن يدخل بيتك اليوم ضيف ولا تقدم له القهوة.

والقهوة عند البادية تعني الكرم وحسن الضيافة والإستقبال؛ فأول ما يقدم عندهم هو فنجان القهوة؛ وتعني أيضاً القيمة والمقدار والتعلق بالسبب؛ بحيث أن من له طلب عند مضيفه إذا مد إليه الفنجان يقول: ما أشرب فنجاني إلا إذا تم طلبي. فيرد عليه مضيفه بقوله: اشرب فنجانك؛ جاك مطلوبك؛ وهي عادة لا يقتنيها [سابقاً] إلا الرجال الذين لهم قيمة ولا تصب إلا لمن هو أهل لها؛ قال شاعرهم:

قم سو ما يجمد على الصين يا ذياب
بدلال يشدن البطاط(٥٧) المحاديب
احمس إلى من العرق فوقها ذاب
واستدن ما يجذب عليك الشواريب

---

(٥٧) البطاط: جمع بطة.

واليا انطلق من ثعبته كنه خضاب
ورس صبغ بكفوف بيض رعابيب
عده لمن قاد السرايا للاجناب
له مفرس يشبع به الطير والذيب
والثاني اللي وان لفي بيته اركاب
قدام بيته مثل جزر المقاصيب
والثالث اللي وان غشى الزمل ضبضاب
يرخص بعمره دون زمل الرعابيب
وباقي العرب يكفيهم التول(٥٨) وان شاب
قضابة المجلس حمير المشاعيب
اللي نهار الكون يفزع بمصلاب
أكبار الأنفس ساهجين المواجيب(٥٩)

ومن القصائد المشتهرة في عمل القهوة ما قاله دغيم الظلماوي:

يا كليب شب النار يا كليب شبه
عليك شبه والحطب لك يجابي
علي أنا يا كليب هيله وحبه
وعليك تقليط الدلال العذابي
ادغث لها يا كليب من سمر خبه

---

(٥٨) التول: بقايا القهوة.

(٥٩) للشيخ عايس بن مجلاد العنزي.

وشبه إلى منه غفا كل هابي

وكان رجال البادية يدخنون علناً؛ ولا يرون بأساً في ذلك لقلة الوعي الديني عندهم؛ ولعدم معرفتهم بمضار التدخين وسلبياته؛ بل كان لا يدخن عندهم إلا الفارس أو شيخ القبيلة؛ وهم يستوردون التبغ الجيد من العراق ويسمونه "تتن" بكسر التاء الأولى أو شاور؛ ومن يدخنه يسمونه "تتان" ولم يكن لديهم من أدوات التبغ غير التبغ ذاته؛ لذا يعمدون إلى عظم يتخذونه من ساق الجدي الصغير فيعملونه على شكل الغيلون ويسمونه "العظم" وقد قال شاعرهم بعد أن لاموه على التدخين بعد مجيء الإخوان:

يا لا يمين التتن لولاه لولاه

لولا شراب التتن أنا وين اروحي

والله يا لولا العظم يوم اني املاه

واكويه بالجمره ويكوي جروحي

مع دلة صفرا على النار مركاه

أبصر بصبتها على كيف روحي

فنجالها يشدي خضاب الخونداه

الجادل اللي عند اهلها طموحي

.... الخ القصيدة.

ومن محاسن عرب الجزيرة في الوسط آنذاك؛ أنهم لا يشربون الخمور مطلقاً؛ لأنها تخمر العقل وتضيعه؛ وهم أشد من يحافظ على العقل؛ ولأنهم يرون في شرب الخمر دناءة تنافي الرجولة؛ وربما لأنهم لم يعرفوه ولم يكونوا حريصين على معرفته أيضاً.

أما أطعمتهم فهي الإعتماد الكامل على حليب الإبل والتمر الذي يأكلونه بشكل مكثف مع حليب النوق؛ ولم يعرفوا الأرز إلا متأخراً؛ وعوضاً عنه كان لديهم البر والدخن؛ وكانوا يأكلون اللحم أيضاً بشكل شبه يومي لكثرة الأغنام عندهم؛ لكنهم لا يخلطون مع اللحم أرزاً مثلما نراه اليوم؛ بل يقدمون اللحم مطبوخاً فقط ومعه اللبن؛ ولذلك كانوا يفخرون بأنهم يذبحون الحيل من الأغنام [الحيل التي لم تنجب فتكون أكثر لحماً وشحماً من غيرها] وأما من اشتهروا بالكرم فهم يذبحون الإبل للضيوف؛ ومن عاداتهم إذا جاء الضيف وعرفوا أنه ممن يستحق الإكرام لفرسيته أو جاهه أو حكمته فهم يكرمونه؛ وكان بعضهم يحكم على الضيف الذي لا يعرفه من مجلسه وهيئة جلسته؛ فإذا جلس في صدر المجلس أكرموه؛ أما إذا جلس حيث يقعد به المقعد فهو يأكل من أكلهم اليومي؛ وأحياناً تكون هيئة

الضيف وشكله تؤهلانه لإكرامه. فقد جاء رجل إلى قوم فلم يعاملوه معاملة ضيف؛ وبعد عام مر عليهم وقد ارتدى ثوباً فضفاضاً مما يسمى "أبو ردون" فذبحوا له؛ ولما جلس على الصحن قال مازحا: كلي يا ردوني.

والكرم عندهم سجية توارثوها واستمروا عليها؛ حتى أن الأب يوصي بها أبناءه من بعده؛ قال الشاعر:

أودعكم على ذبح الخروف المنتهي يا عيال
تعادوا به لهشال الخلا تكفون يا عيالي

ومعنى قوله المنتهي: أي الذي لا بعده في السمن؛ فهو الخيار من الغنم؛ بل صار البدوي مفتوناً بالكرم ومحبا؛ لذلك يفرح عندما يأتيه الضيف؛ حتى أن أحدهم إذا لم يأته ضيف مدة طويلة يكتئب من ذلك قال الشاعر:_

وتلقى رجال بالقسا تذبح الشاه
ليا شلهبت بغث الليالي المجاويع
رجالهم يفرح بضيفه ليا جاه
ويشجعون الضيف ما عنه تمنيع(٦٠)

ومن اخلاقيات الضيف أن يكون مؤدباً وحريصاً على أن لا يسيء لمضيفيه؛ وأن يغض البصر عن ما يسيء لهم؛ ومن الخروج عن تلك القاعدة أن جاء ضيف عند

---

(٦٠) لشاعر من العضيان نسيت اسمه.

قوم؛ وكان عندهم فتاة جميلة عرف أن اسمها "ردعه" فتغنى قائلاً:

كلما قلت استراح القلب ردعه جاته
جادل تمشط مقاديمه بورس وحنا

وتجاه ذلك السلوك السيء؛ حيث تغزل ببنت مضيفيه؛ قال أحد أقربائها مستهزئاً ومؤدباً له حينما سمعه:

ما تريد اللي كما خشم جبله جمهاته
والهمس واللي فمه من إذنه إلى إذنه منا

(وجبلة هي جبل ناتئ في عالية نجد وقد شبه جبهته به؛ أما الهمس فهو صغير الأعين؛ ثم ألحق وصفاً له بأن فمه واسعاً بحيث أنه يبدأ من الأذن وينتهي عند الأخرى!!).

وكان اعتماد أكثرهم في الغذاء اليومي على الصيد؛ وخاصة الظباء والأرانب التي كانت كثيرة في الجزيرة العربية؛ وقد حدثني رجل من كبار السن فقال:- كانت الظباء تمشي كقطيع الأغنام ونصيد منها ما نأكل فقط؛ وكنا لا نسرف في الصيد؛ أما الأرانب فنلجأ إليها عندما نفلس من الظباء. أ.هـ.

وكانوا قبل أن يعرفوا البنادق يصيدون بالسهام أو الرماح التي يطلقونها عن قرب على الظبى فتصيبه.

أما غير الظباء والأرانب فكانوا يصيدون أيضاً الضب واليربوع "ويسمونه جربوعاً" والطيور الحلال؛ لكن أكثر ما يصيدون كما قلنا الظباء؛ وأكثرهم اعتمادهم في الصيد على السلوقي؛ وهو من فصيلة الكلاب؛ لكنه مدرب على طرد الأرانب والغزال؛ لذلك نجد بعضهم يهتم بالسلوقي وطير الصيد.

وأكثر ما يستعملون لانضاج صيدهم؛ هو طريقة الشوي حيث يوقدون ناراً من السمر أو مما يتوفر مثل الرمث وتكون رائحة المشوي عليه مغرية بالأكل؛ ولهم طرق متفننة في عزل اللحم عن بعضه حسب المذاق والرقة واشتهاء النفس له؛ إذ يجعلون الكبد والقلب والرئتين معاً ويسمونه "معلوقاً(٦١)" أما الأضلع وما يتعلق بها فيعزلونه لوحده ويسمونه رقاق اللحم؛ لكن هناك لحمة الضلع الرقيقة الملتصقة به يسمونها " شاكلة "(٦٢) وبعد عزل اللحم يبدأ شوي اللحم؛ ومن عاداتهم أن لا أحد يذوق اللحم قبل الأب والأم؛ لذلك يقولون "رقاق اللحم لهم" وتلك من صفات البر بالوالدين؛ وهي صفة عند القبائل البدوية بوجه عام؛ اشتهر عنهم أنهم أهل بر بين وواضح بوالديهم كما هو

---

(٦١) أعتقد لأنه معلق في صدر الدابة.

(٦٢) عربية فصحى.

مشهور ومعروف[٦٣]؛ والقصص في البر كثيرة جداً يعرفها الناس عن البادية وبرهم بالوالدين والأقربين.

ومن عاداتهم في الطبخ أنهم يطبخون اللحم باللبن خاصة وقت الربيع؛ كما أنهم يطبخون القرص المصنوع من البر باللبن؛ وهنا يختلف المذاق إلى مذاق مغر جداً.

والبر مادة محببة لهم؛ إذ أنه غذاء كامل مع السمن البري بالرغم من قلته عندهم؛ لكنهم يتفننون في صنعه؛ وكذا كانوا يأكلون الدخن والذرة؛ فمن أنواع البر عندهم صنعاً ما يسمونه "قرص الملة" وهو أن يعجنوا العجين ثم يوقدون ناراً فإذا صارت جمراً قاموا بوضع العجين فوق الجمر حتى ينضج ويكون سمك القرص كبيراً عادة؛ لأنهم يحكون ما لصق به الجمر حتى يصبح نقياً؛ ويقومون بصب السمن البري فوقه مع كمية من البصل النييء إذا كان الوقت شتاءً؛ ومن البر ما يصنع مع الأقط أثناء عملية تحويل اللبن إلى أقط؛ فيجيء متشربا بطعم اللبن.

أما القرص العادي فيسمونه "قرص صاج" وهو ما يصنع على الصاج؛ وهناك قرص يسمى قرص عقيل وهو ما يخلط معه تمر. ولديهم من أنواع الغذاء من

(٦٣) من القصص المشهور في هذا الشأن قصص ابن هدلان وبره المعروف.

مكونات التمر ما يسمى "الشعثاء" وهي عبارة عن أقط وسمن وتمر؛ إذ يقومون بطحن الأقط حتى يكون ناعماً ثم يفركونه مع التمر حتى يختلط ويزاد على ذلك سمن بري؛ وقد يسمونه "فريك" مأخوذ من الفرك؛ كما أنهم يأكلون الجراد اليابس مفروكاً مع التمر؛ غير أنهم يأنفون عن أكل الحرام من كل ذي ناب وظفر ومنقار معقوف وخشاش الأرض. أما الخيل فلا يأكلونها؛ ولم يعرف عنهم ذلك؛ وكذا لا يأكلون ما حرم أكله من الحيوانات والطيور.

ويحرصون على المرق شتاءً لأنه يساعد على الدفء؛ وقد يخلطون معه الحليب ويسمونه " عبيلة " وذلك عند كثرة الضيوف بحيث لا يكفيهم اللبن.

وهناك من الأغذية الجراد الذي يعتبرون أكله شفاء من الأمراض؛ وعكسه الكمأ الذي يكثر في موسم نزول الأمطار في وقت يسمى الوسم؛ وهو أول الأمطار الربيعية ومن أقوالهم في ذلك الشأن "إذا جاء الجراد فانثر(٦٤) الدواء؛ وإذا جاء الفقع فصر الدواء" أي أحفظه في صرته.

وهناك فطريات تنبت مع نزول المطر يأكلونها كالعرجون مثلاً أو غيره مما يأكله الرعاة أثناء رعي

---

(٦٤) انثر: أهريق.

الأغنام؛ وقد يفتن الأطفال بنباتات معينة يأكلونها وقت الربيع لا للأكل ذاته؛ لكن للتلذذ بطعمها المتميز مثل القرقاص والحوي والبسباس؛ وغيره من النباتات البرية الحلوة أو الحامضة جداً كالحميض أو النادرة مثل عين الجمل وهي التي تنبت غالباً في أودية الجبال الصلبة.

البادية والترفيه

على الرغم من أن حياة البادية سابقاً كانت حياة عدم أمن أو اطمئنان لكثرة الغارات عليهم نهاراً أو ليلاً؛ ومع هذا فهم يجدون وقتاً للترفيه عندهم؛ ومن وسائل الترفيه عند البادية الشعر النبطي؛ وهو مخزون هائل عندهم من كل أنواع وأغراض الشعر كالمدح والهجاء والحكمة والرثاء وغيره من الأغراض التي تجيء عبر صنوه الفصيح؛ وقد اشتهر منهم شعراء عظام في شعرهم وفي شجاعتهم وحكمتهم؛ ومن له شهرة في ذلك الشأن الشيخ تركي بن صنهات بن حميد والشيخ راكان بن حثلين؛ ومشايخ آل رشيد الأمراء الشعراء؛ وكذا الأمير تركي بن عبد الله آل سعود؛ والشيخ محمد بن هادي بن قرملة؛ والشيخ ذعار بن مشاري بن ربيعان وغيرهم كثر؛ لذلك فإن الشعر عندهم هو سجل مآثرهم ومفاخرهم؛ وهو متنفس آمالهم معاً؛ ولهم طرق مختلفة في إيراد شعرهم من حيث الإلقاء والكلمات وغير ذلك من أدوات الشاعر المتمكن.

فهناك الجلسات الخاصة التي يقضي فيها الشعراء ليلهم تحت ضوء القمر متقابلين كل منهم يقول

ما استجد لديه؛ وهناك القلطة وكانوا يسمونه بـ (المراد) وتعني أن يتقابل شاعران ومعهما صف من المرددين؛ فيفخر كل واحد بقومه أو بنفسه؛ أو أية غرض يظهر فيه تفوقه على صاحبه الذي يرد عليه في الحال؛ وإذا ما أخفق أحدهم أو خرجا عن نطاق المعقول أو خشي المضيف من فتنة تحصل لتردي المستوى؛ فإنه يقول عبارة معروفة تعني التوقف (شاب البيت) أي انتهى الكلام.

أما أجمل لحظة عندهم وأحسن وقت لذلك الشعر فهو بعد النصر على غيرهم؛ إذ يجيء شيخ القوم ويشرب نخب النصر قهوة عربية؛ فيقوم الشعراء يتبارون في تدبيج القصائد التي تعتبر تاريخاً لهم وتوثيقاً لتلك المعركة؛ ولا تخلوا تلك القصائد من التهويل والإعتزاز بالذات كثيراً.

ومن وسائل الترفيه عندهم سباق الخيل وبعض الألعاب الشعبية؛ ومجالس السمر التي كانت محاورات الشعر النبطي تردد فيه؛ لكنهم لم يكونوا يستعملون الربابة في مجالسهم خاصة قبائل وسط نجد بالذات؛ بل كان يأتيهم من يعزفها ممن هو ليس من عشيرتهم؛ بل كانوا يعتبرون عزف الربابة عيباً عندهم؛ قال شاعرهم:

يا بنت لا يغريك صوت الربابة

تراه جلد حويّر فوق عيدان

ولم تكن القبائل تعرف الطبول؛ وكانوا يرون في ضرب الطبل مهانة لأنه كان مهنة الموالي؛ وكانوا هم يئدون مثل ذلك الفن؛ لأنهم يعتبرونه نشازاً على بيئتهم وتقاليدهم المتحفظة بشدة.

وعندما يركب الفارس صهوة حصانه فإنه لا يسكت إلا نادراً حيث يحدو خاصة إذا كانت الحالة حرباً؛ وهذا الحداء يجيء متناسقاً مع خطوات الحصان أو الفرس؛ ومن أحدياتهم المشهورة قول شاعرهم(٦٥):

يا أهل الرمك كل يجيب حداه

انتم وراكم ما تحدون

ترى الحدا لاهل الرمك مشهاه

فكاكة التالي نهار الكون

والرمك هي الخيل؛ والكون هو المعركة(٦٦).

ولديهم غناء عند الورود على الماء ويأتي من طريقتين؛ أحدهما يغنيه القادم بالإبل وهو نوع من

(٦٥) العريفي، أحمد فهيد، حداء الخيل، ط١ سنة ١٤٠٦هـ؛ والبيتان للشيخ هذال بن فهيد.

(٦٦) تختلف تعبير البادية عن معارك؛ فيقولون: كون وهي المعركة التي لا تستمر طويلاً؛ ويقولون يوم: وهي المعركة الحاصمة؛ ويقولون مناخ وهو أطول المعارك وقد يستمر شهوراً حتى ينيخون الإبل ويدافعون عنها.

الحداء لكن النفس فيه أطول؛ والآخر يؤديه من يقوم بمتح الماء من البئر للإبل ويكون النفس أقصر؛ والغرض الشعري إما التغني بالإبل أو بحسناء؛ لذلك يجلس الفتيات قرب الماء كمجموعة؛ وقبل أن يغني الراعي إذا أقبل تقول إحداهن:_ هذا فألي.. ثم الأخرى؛ وهكذا دواليك إلى أن تجيء الإبل إلى الماء.

وبعد ذلك يبدأ الذين على الماء بالغناء بصوت يغري الإبل بالشرب والهدوء في نفس الوقت؛ لكن اللحن والإيقاع يختلف إذ يبدو عليه نوع من الهدوء والإبطاء بالصوت؛ لأن المغني يحمل دلاء الماء الثقيلة وهذا يساعده على زيادة التنفس؛ قال شاعرهم:

يا نوق حظك طيب .... رعي وماه قريب

وكلمة "ماه" تعني ماءه.

ومن عادات النساء؛ وخاصة من تهتم بشعر رأسها أنها تغسله ببول الإبل وخاصة البكر من النوق؛ إذ يتسابق الفتيات إلى الإبل بعد شربها فيتلقفن أبوالها في مواعين ليغسلن به رؤسهن؛ وبعد الغسل تأخذ رملاً ناعماً وتفرك به أطراف الشعر؛ لا بؤرته حتى يصبح لامعاً ومنسقاً.

والرعاة بوجه عام لهم طرقهم في الغناء لأنه يطرد عنهم الرتابة والكسل؛ فمنهم من يرفع صوته

عالياً خاصة إذا كان بين جبال فيسمع صدى الصوت ويحسنه حسب رغبته؛ وقد تعودت الإبل على أصوات رعاتها؛ بل حتى أنها تعرف صوت الراعي حينما يتكلم؛ وهذا يخدمه كثيراً في تفريق الفحول عن بعضها في حالة الهيجان والعراك بينها.

والجمل بالذات حيوان حقود لا ينسى الإساءة له ولو بعد حين؛ إذ أنه ينتقم بشكل خطير قد يذهب ضحيته المسيء له؛ وهناك حالات كثيرة حصلت لمن يسيء معاملة الجمل.

ومن وسائل التسلية لديهم أيضاً المصارعة والتي يسمونها "الطرح" أو "المطارح" وهو أن يجتمع الشباب منهم على مرأى من الناس ويبدأون في الصراع لكي يوقع الخصم على الأرض لكن لديهم قواعد لتلك اللعبة؛ بحيث يعرفونها قبل البدء؛ فمثلاً قبل البدء يقول أحدهم للآخر: هل فيه عرقبة أم لا؟.

والعرقبة تعني استعمال القدمين لإعاقة الخصم وطرحه أرضاً؛ وهذه أصعب أنواع المصارعة لديهم؛ أما إذا حظر ذلك فهم يستغرقون زمناً أطول.

وهناك من وسائل الترفيه السباق على الأقدام؛ وهذا النوع يحتاج إلى قوة وخفة في الجسم؛ ويكون هناك حكم ليحكم بينهم؛ بحيث يضع لهم حدا للبدء

وحدا للنهاية؛ وهي غالباً ما تكون خطوطاً على الأرض بقدم الحكم؛ ويصطفون عند البداية؛ ثم يصيح لهم بالبدء ويكون في استقبالهم عن خط النهاية ليحكم بينهم.

أما ليلاً فوسائل الترفيه كثيرة؛ ومن أشهرها ليدهم لعبة تسمى "عظم ساري" وعظيم تصغير عظم؛ إذ يأخذون عظماً قد أصبح كثير البياض ويرميه أحدهم ثم يبحثون عنه جميعاً؛ فمن وجده يقول: عظيم سري. ويلحق به البقية قبل أن يصل إلى خط النهاية؛ فإن أدركوه تكون نقطة ضده وإن لم فيكون هو الفائز.

ومن لعب الأطفال لديهم ما يسمونه بـــ "الغميمه" وهو أن يجتمع مجموعة من الأطفال ويضعون غطاء على عيون أحدهم بحيث لا يستطيع الرؤية: فيأتي كل واحد منهم على حذر ويلكزه فإذا امسك بأحدهم يجيء مكانه؛ وإن لم يمسك بأحد فيبقى يتلقى تلك اللكزات في جسمه.

ومن وسائل الترفيه عند أطفال البادية وخاصة الذين لم يبلغوا العاشرة منهم أنهم يأخذون صفائح رقيقة من الحجارة ويقومون بتشكيلها على هيئة نوق؛ ثم يأخذون أصغر منها ويلصقونها بالكبيرة ويحركها بيده حتى تسقط الصغيرة فيفرح ويقول:_ ولدت الناقة؛

ويعيش في أحلام معها كيف يربيها وماذا يسميها... الخ.

ومن وسائل الترفيه عند الأطفال ما يسمى "الدسيسه"؛ وأغلب من يلعبها البنات الصغيرات؛ حيث تختبيء واحدة منهن ثم تنادي مرة واحدة فيتفرق الباقيات للبحث عنها؛ وأكثر ما يلعبنها داخل البيوت أو في غابة شجر العوسج أو الرمث؛ ولديهن لعبة أخرى وخاصة إذا كانت الأرض ليست قاسية؛ إذ تقوم اثنتان بلعبة الغبيه وهي أن تضع كفها على الأرض في عدة أماكن أغلبها لا يمكن رؤيته إلا بعد تدقيق؛ فإذا انتهت كل واحدة قالت الأخرى: دور. أي أبحث فتقوم كل واحدة بطمس آثار كف الأخرى حتى ينتهين؛ ومن وجدت أن شيئاً مما وضعت لم يطمس وكان عدد الأكف الباقية بدون طمس أكثر فتعتبر هي الفائزة. وهناك ألعاب كثيرة للأطفال يصعب حصرها.

وهناك هواية محببة للبادية وهي الصيد؛ إذ أنها هواية ترفيهية ومعاشية في آن واحد؛ فهم يستعملون الصقور الحرة المدربة على الصيد؛ وكذا يستعملون نوعاً من الكلاب المدربة يسمى " السلوقي" وأنثاه كذلك وتسمى " سلقة " والصيد عندهم كما قلت ترفيها ومعاشا؛ إذ أن أكثر اللحوم التي يأكلونها عادة هي

لحوم الصيد؛ وخاصة الغزلان والأرانب البرية التي تصطاد بواسطة السلوقي؛ أما الغزلان فهم يطاردونها بالسلوقي وذلك قبل استعمالهم للبنادق؛ ولهم طرق متعددة في تدريب الصقور على الصيد؛ وكذا كلاب الصيد المعروفة؛ ويجد الممارس للصيد متعة أيما متعة في تلك الرياضة البرية الجميلة.

البادية والمناسبات

كانت البادية تعيش على سجيتها؛ وهي لا تفتعل المناسبات؛ بل تتركها تأتي على السجية؛ وبما أن حياة البدوي تشبه حياة الجندي المرابط المستعد لصد هجوم يأتي من الخصم؛ فهي حياة ترقب للمجهول؛ إلا أن هناك أشعة من فرح تأتي عبر الأفق المظلم المترقب للحزن.

فمن أفراح البادية فرح النصر بكسب إبل أو صد غارة عليهم؛ أو أخذ بثأر من قاتل أو قتل عدو؛ وفي تلك الحالة تجتمع العشيرة على شرف شيخها الذي يجب أن يذبح الخراف لتلك المناسبة؛ وهذا الشيخ له الولاء المطلق منهم رغم المنافسين الذين يكونون من أقربائه؛ وفي تلك الحفلات يحضر كل القاطنين من القبيلة؛ فالرجال لهم مجلسهم القريب من مكان موقد النار؛ حيث يتحلقون على شيخهم وبعدهم الشباب ثم الأطفال؛ أما النساء وخاصة الكبيرات في السن فلا يحرمن من تلك المناسبات؛ وقد يكون منهن شاعرات بارعات في الشعر. وكانت المرأة البدوية ذات مشاركة مهمة في الحروب سواء في ميدان المعركة أو تأليب الفرسان وحث روح الفداء فيهم؛ وفرح النصر يبدأ

بقصائد تمجد تلك اليوم؛ إذ يتحدث الشاعر عن أخصامهم بأنهم أقوياء ولكن هو أقوى منهم؛ ثم بعدها يعدد مناقب قومه؛ بعد أن يصور أخصامه.

قال شليويح العطاوي:_

يا طيبهم لا قرب الله دارهم
وحنا علاهم[٦٧] مثل نجم هاوي
ويا ويليهم لو لا اسمر في خيلهم
يهوي علانا اهواية النداوي

أو كما قال الشيخ تركي بن حميد يرحمه الله:

انتم كما ضلع طويل ومزموم
وحنا كما نجم إلى جاه هله
وانتم كما حوت كبير ولاهوم
والله خلقنا للواهيم عله.

ومن أفراحهم بروز شاعر مجيد أو فارس صنديد، ويعرفون شجاعة الرجل بعد المعركة حيث يرفعون له البياض[٦٨] على لسان الحكماء والشجعان منهم، بل يمدحه الشعراء في احتفالهم النصر؛ ولذلك

---

(٦٧) علاهم: تعني عليهم؛ وهي من لهجة عتيبة التي يقلبون الياء ألفاً، ومثلهم علاهم في البيت الثاني.

(٦٨) البياض: تعني النقاء والوضوح فيقولون بلهجتهم: فلان تطلاه البيضاء وبالعكس السواد للرجل فيقولون. فلان تطلاه السوداء؛ وكانوا إذا وقفوا بعرقات يجيء من ينادي بالبياض لشخص ما في مخيم المحديين؛ ومن ضمن ذلك قصة لنداء بالبياض لابن سعبان من مطير في نفس المكان.

تجد أن نسل الشجعان الآن قد انقطع أو كاد؛ لسبب بسيط وهو أنهم مقاتلون أشداء؛ فلا بد والحالة هكذا أن يتعرضوا للموت في المعارك.

ومن أبرز أفراح البادية فرح الختان للفتيان ويسمونه "إطهار" أي أنه يكون طاهراً ومتبعاً لسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي سنها لختان الأطفال الذكور.

وهذا الفرح عندهم من أعظم الأفراح؛ حيث يحتشد الشعراء وتبدأ القصائد العصماء؛ ولكن أكثرها تمجيد لآباء الأطفال الذين يأملون أن يكون هؤلاء مثلهم في الكرم أو الشجاعة أو غير ذلك من الأخلاق المحببة لدى العرب الخلص التي يهتمون بها ويحاولون الإبقاء على مسيرتها مستمرة.

أما أفراح الزيجات فهي أقل بكثير من هذين الفرحين أعلاه؛ لأن الزيجة عندهم تأتي محصورة عادة في الأسرة الواحدة؛ وقد جرى عرفهم وقولهم "البنت لابن عمها" وأحياناً يحجرها ابن عمها؛ وهو عضل للمرأة ولا يجوز؛ وأما قولهم "الطريق ولو طالت وبنت العم ولو بارت" فهو من الأقوال التي تحث عن التكافل الاجتماعي الجيد؛ لأن الفتاة إذا كانت غير جميلة

فالرأفة والحمية تأتي من قريبها فيتزوجها حفظاً وصوناً لعرضها وكرامتها.

لكن اهتمامهم بمناسبات الزيجات ليس مثل اهتمامهم بسابقتها؛ لكن إذا تزوج الرجل من خارج القبيلة؛ وخاصة ذوي الشأن فإن قومه يصاحبونه بأحسن هيئة؛ شداً لأزره في أعين المصاهرين لهم؛ وإذا عادوا من عند أهل العروس فلا بد أن يقيموا فرحاً لائقاً أول من يدعي إليه أصهارهم الجدد.

ومن أشد الأحزان عندهم الحزن على فارس أو شيخ له مقام عندهم؛ أو زوج أو أخ؛ إلى غير ذلك من فاجعات الدهر التي يتلقونها حزناً سرعان ما يذوب؛ لأن الله رحيم بخلقه فقد رزق الإنسان نعمة النسيان.

والمرأة البدوية كثيرة العاطفة وقوية العزيمة والصبر؛ لكنها تنهار عند موت قريب لها؛ وخاصة الأخ الذي لا يمكن تعويضه؛ وهنا يظهر الحزن جلياً؛ فقد روى عنهن أنهن يقمن بشق ثيابهن ويدعين بالويل والثبور؛ وأكثر العبارات هي من الكلمات التي تنفس بها عن الفقد للغالي خاصة الأب أو الإبن أو الأخ؛ وسبب ذلك أن المرأة تعتز بأخيها أكثر من غيره؛ لأن الأخ لا يعوض بعكس الزوج أو الإبن؛ لذلك تظهر الحزن العميق مع أنه مكروه؛ أما عند وفاة الزوج فلا

تظهر حزناً واضحاً لأنها إذا أعلنت الحزن فهذا يعني أنها لن تتزوج بعده؛ وقد تكون شابة فإذا فعلت ذلك لم يتقدم لها أحد؛ ولكن أغلبهن لهذا السبب يكون حزنها خفياً.

أما فقدان الأب فهو هدم لرأس البيت وقاعدته في آن واحد؛ خاصة إذا كان ممن لهم وزن بين قومهم؛ وهنا يظهر الحزن جلياً عند أولاده وبناته وزوجته الكبيرة في السن.

وأغلب حالات الموت تحصل في المعارك التي يخوضونها؛ وهناك أماكن قد كثر فيها موت فرسان وشجعان من القبائل النجدية المختلفة؛ وهذا المكان معروف بتلك الحالات وهو واد يقع في عالية نجد ويسمى بـ "وادي الجريب" لأنه أحسن الأماكن للرعي؛ فكثيراً ما تحصل الحروب فيه ويذهب جرائها أنفس كثيرة؛ وقد تتبعت الذين ماتوا فيه(٦٩) من المشاهير فوجدت أعداداً كثيرة من مختلف القبائل؛ بل من أعلامهم أيضاً.

وملابس الأحزان عندهم تكون عادة من اللون القاتم وخاصة الأسود الذي يلبس للحداد عند المرأة؛ والمرأة البدوية عندما يتوفى زوجها فإنها تبقى في

---

(٦٩) يسمونه الآن وادي الجرير.

خدرها أربعة أشهر وعشراً لا تخرج منه؛ ولا تقرب طيباً أو تتجمل؛ فإذا خرجت من العدة تطيبت وتزينت؛ وقام أقرباؤها بذبح وليمة الخروج من الحداد؛ وتلك عادة عند أهل وسط الجزيرة العربية باديتهم وحاضرتهم في السابق؛ لأن الحداد أمر أوجبه دينهم؛ لكن تختلف الطرق في هيئته وشكله.

وملابس البادية تختلف ما بين الرجال والنساء؛ وكذا بين طبقاتهم؛ إذ أن الغالب هو الثوب الذي يشبه الثوب السوداني أو العماني الحالي؛ لكن يكون فيه زيادات في الكم بالذات؛ وتلك الزيادة تجيء في آخر الكم من عند اليد حيث يبدأ ضيقاً نوعاً ما عند الإبط ثم يبدأ في الإتساع حتى يصل مفصل الكف فيكون عرضه أكثر من أربعين سم ويسمى عندهم بـــ " مرودن ".

وهناك الثوب الذي ليس بالمرودن وهو يشبه الثوب العماني الحالي.

وهناك ما يسمى بالزبون؛ وهو نوع من الملابس يشبه الجاكيت الطويل الذي يغطي الجسم كله؛ لكنه مقصور على علية القوم؛ أما غطاء الرأس عند الرجال فهو العمامة التي تشبه عمامة السودانيين الآن؛ وهي

بنفس الطريقة التي يلفونها على الرأس؛ ولم يعرف عنهم أنهم يلبسون العقال إلا متأخراً.

وكان لبسهم شتاء أغلظ من ملابسهم الصيفية لشدة البرودة وكثرة الأمطار؛ فكانوا يلبسون العبي المصنوعة من وبر الإبل ويسمونها "شملة" لأن الجالس يشتمل بها؛ وهناك ما يسمى شعبياً "البيدي" وهو أغلظ من الشمالة وأثقل حملاً؛ أما الفراء فكانت منتشرة بكثرة عندهم؛ وخاصة قبائل الشمال من نجد.

وأما الملابس الداخلية فلم تعرف ليدهم لكنهم يلبسون ما يسمي سروال وهو يشبه السروال الباكستاني الحالي فلا يعتبر داخلياً وأكثر استعمالهم له في الحروب؛ حيث يلبسه الفارس ويعصب رأسه دون ملابس سواه؛ كما كان يفعل أغلب الفرسان المشهورين.

وأما ملابس المرأة فكانت من قماش يجيء من الهند وكذا من تركيا والعراق أو غيرها من البلدان.

وقد كانوا يسمون المتوفر لديهم القيلان وكذا القز وهو لا يصف جسد المرأة؛ بل كان فضفاضاً جداً؛ لكن الأكمام تكون ضيقة وعليها بعض التطريز من زري ونحوه.

وكان النساء يلبسن الفضة لأنها متوفرة بكثرة؛ وهناك فضة تسمى بـــ "الحجول" جمع حجل وتضعها المرأة في الساق ولها خلخلة تسمع صوتاً يحكي مشيتها؛ وهو منذ القدم عند العرب

قال الأعشى بن قيس:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت
كما استعان بريح عشرق زجل

وهناك من الذهب ما يسمى "الفردة" وهو نوع من الذهب الهندي يعلق في الأذن والأنف في آن واحد؛ وهو موجود في الهند إلى الآن؛ ولدى النساء "الزمام" وهو ما يخرق له في جانب الأنف ويوضع على طرفه ولـــه رأس من فصوص الأحجار الثمينة؛ وفي الأيدي يلبسن ما يسمى "المعاضد" وهي التي تلبس على العضد والساعد أيضاً؛ وهناك ذهب يلبس على الكف والأصابع بحيث توضع الخواتم في الأصابع ويربطها عدة شغايا تجتمع في أسوارة في الساعد ويسمونها "كف" لأنها تغطي الكف كله؛ لكن هذا النوع لبنات ونساء كبراء القوم؛ لأنه نادر وغالي الثمن.

أما الخواتم فهي كثيرة الاستعمال واللبس لكن أغلبها من الفضة؛ ولها فصوص من الحجارة؛ وكانوا أيضاً يستعملون لليد ما يسمى "الملوى" وهو نوع من

البلاستيك يلوى على الذراع وله ألوان مختلفة منها الأحمر والبني والأزرق؛ وهذا النوع جاء متأخراً.

وكانت المرأة البدوية تهتم بجمالها وجمال ملبسها أيضاً؛ فقد كانت خامة الملابس تأتي قديماً باللون الأبيض وهو الأكثر؛ فيقمن بصبغه بمادة حمراء أو بنية؛ بحيث يستعملن اخلاطاً من الأعشاب والثمر لكي يزين به الملابس؛ ومن الثمر الذي يستعملن في الغالب قشر الرمان اليابس الذي تخلط معه مادة ملونة لينقع القماش فيه ويتغير لونه "هناك القرمز وهو نوع من التلوين" وكن يحرصن على التطريز بالزري الذي تهتم المرأة باقتنائه والمحافظة عليه عندما يبلى القماش لتضعه في قماش جديد.

وأما غطاء الرأس فيجيء بلون أسود لكن النساء يصنعن منه البراقع(٧٠) ولباساً لغطاء رؤوس النساء؛ أما الفتيات الصغيرات فلهن ما يسمى "بخنق" وهو قماش أسود مخاط على شكل كامل يغطي الرأس والصدغين ولا يخرج إلا الوجه فقط؛ ثم يتدلى حتى يغطي الكتفين ويصل أسفله إلى اليدين؛ وثوب المرأة

---

(٧٠) يتفنن بعض النساء في تجميل البراقع بخياطة خرز صغير فيه يتزل على الأنف من الخارج أو على أطراف البرقع.

له أزرار على الصدر إلى الرقبة بحيث لا يرى من صدرها شيء؛ قال أحدهم مخاطباً زوجته:

يا زين فرع وقص الرأس

وخل الأزارير دلاعي

ودلاع تعني مفكوكة غير محكمة.

والمرأة البدوية تهتم بشعر رأسها جيداً وتستعرض به في مناسبات الرقص؛ ومن يكن شعرها طويلاً فهي أكثر ابتهاجاً من التي شعرها أقصر؛ وهذا التطويل للشعر يحتاج إلى عناية خاصة به من حيث الغسل والتسريح والدهن وغير ذلك من وجوه الاهتمام به.

وهناك ما يستعمل ليكون شعر الرأس ذا رائحة جذابة من النباتات الصحراوية مثل نبات الشمطري والريحان وغيره من النباتات ذات الرائحة الخلابة؛ أما أنواع العطور التي كانت المرأة البدوية تستعملها فهي قليلة جداً ولا تعدو كونها روائح تتخذ من الزهو البرية أو غيرها مما يتوفر في البيئة نفسها؛ بسبب أن أغلب القبائل العربية منغلق في وسط الجزيرة العربية؛ ولا يوجد بالقرب منهم موانئ يستوردون عن طريقها إلا ما كان من الشمال المتصل بالعراق والشام؛ غير أن المسك كان متوفراً عند علية القوم بشكل قليل؛ فكان

النساء يستعملن المسك بفركه مع شعرهن حتى يكسب شعر الرأس رائحة جذابة؛ قال شاعرهم:

.... مدهال غرو يحط المسك بقرونه[٧١].

وكان جمال البدوية يجيء تلقائياً لا تكلف فيه؛ وهو الذي أشار إليه الشاعر المتنبيء بقوله:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية

وفي البداوة حسن غير مجلوب.

وكانت المرأة البدوية تماري بجمالها أي تحاول أن يراه الرجال فيمدح الجمال شاعر أو مفوه؛ وبالرغم من ذلك فهي تحمي شرفها ولا تدنسه؛ وخاصة اللائي رزقن الجمال والمنزلة الإجتماعية الرفيعة.

وكان الحب عند البادية عذرياً ينتج عنه في الغالب الزواج؛ خاصة إذا لم تكتشف العلاقة بين الرجال والمرأة؛ أما إذا اكتشفت فمن المستحيل الزواج؛ وكم مات لديهم كثير من الرجال نتيجة التعلق بالحب والهوى.

أما ملابس المناسبات كالعيد والجمعة فهي ملابسهم العادية إلا أنهم يحرصون في العيدين على تجديدها؛ حتى أنهم يقولون في تهنئة بعضهم لبعض بالعيد: عاد عيدك ولبست جديدك.

---

(٧١) تطلق على جدائل الشعر كلمة "قرون" مفردها قرن لأن الشعر يقرن بعضه مع بعض أو يجدل.

أي عسى أن يعود عليك العيد وتلبس اللباس الجديد.

وقد تغير الزي بعض الشيء بعد بروز الإخوان؛ حيث جاءت العمامة التي تسمى باللهجة النجدية "المعم" وهي خرقة طولها يزيد على ستة أمتار؛ أما عرضها فلا يزيد على ١٢٠سم؛ وهي عندهم كفن للمقاتلين؛ حيث يلوثه فوقه رأسه كما يفعل السودانيون اليوم؛ فإذا مات في المعركة أو موتة طبيعية كفن بها؛ وذلك لقلة ذات اليد يومها؛ بل يختارون ثمنها من الحلال الخالص.

القضاء عند البادية

المجتمع البدوي مثل غيره من المجتمعات الأخرى التي يحصل فيها نزاع بين اثنين أو أكثر؛ لذلك لا بد من حاكم يرضون بحكمه وما يصدر عنه ويطيعون ما يراه؛ فكان لديهم قضاة منهم اشتهروا بالحكمة والذكاء والدهاء أيضاً؛ وهؤلاء يسمون أيضاً العوارف جمع عارفة؛ وهو الرجل الذي يعرف الأنساب والتاريخ والعادات والتقاليد البدوية واشتهر بذلك؛ فيكون هو الحكم والقاضي العرفي؛ إذ أن المتخاصمين يأتون إليه أو يوكل أحدهم من ينوب عنه في الدعوى وإقامتها والرضى بالحكم فيها؛ ويسمون هذا النائب "لساناً" لأنه ينطق عن ألسنتهم.

وممن اشتهر بالوكالة والنيابة عن قومه في هذا الشأن فهاد الحلاج الجميلي من عتيبة؛ فقد كان بمثابة محامي عن قومه الأقربين لدى القاضي وله قصص مشهورة عند النجديين؛ لأنه صاحب حجة وبديهة سريعتان؛ وقد اشتهر قضاة من حرب وعتيبة وقحطان ومطير وغيرهم من القبائل يقصدهم الناس للتحاكم لديهم؛ ومن حرب اشتهر كثيرون منهم أسرة القرف والربيق والعويد وشبيب بن رداس وغيرهم في حرب؛

والقبائل الأخرى لها قضاتها المعروفون عندهم وعند غيرهم.

واشتهر كقاض عند عتيبة أيضاً ابن ثعلي من العضيان من الروقة وكان من أكبر قضاة عتيبة؛ وهو الذي يثقون في نزاهة حكمه وعدالته يومذاك وكذا حجرف الدغيلبي الذي اشتهر بالقضاء خصيصاً في مسائل الخيل وأنسابها.

يأتي الأخصام للقاضي فيدلي كل بحجته؛ إذ يقول مستفتحاً كلامه بقوله: يا قاضينا يا للي بالحق ترضينا أنا... كيت ... وكيت.

وكثيراً ما يستعملون العبارات المسجوعة لحجتهم؛ ثم يتقدم خصمه ويقول مثل قوله.

والقضاة يختلفون بحسب التخصص؛ فهناك قاضي الحقوق الخاصة والعامة؛ وقاضي الخيل وقاضي مشاكل النساء.. الخ.

وللخصم الحق في أن يطلب من القاضي تحويله إلى آخر إذا أحس بالغبن فيقول: سقني على غيرك. أي أدفعني إلى غيرك.

ويجيب القاضي بقوله:_ سقتك على فلان.

ولــه الحق أيضاً أن يحيله إلى ثالث وهو الأخير؛ وعند الأخير يرضى بالحكم.

وكانت قاعدة القضاة عادة تقوم على "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر" والبدوي لا يحلف يميناً إلا إذا كان متيقناً أنه صادق وعارف لصدقه. وكثيراً ما ترك الحق الذي به يمين؛ تنزيها لله ثم لنفسه عن الحلف؛ وحتى لا يقال: ما أخذتها إلا بيمين.

وكان القضاة يستعملون الذكاء في معرفة الجاني بالذات؛ فقد كان هناك قاض وقد ادعى لديه قوم أن بني فلان رموا ناقتنا وقتلوها في أرضهم وهي ثمينة؛ فجمع القاضي عدداً من أبناء تلك العائلة المتهمة ليعرف من رمى الناقة منهم بالذات؛ وكان قد جعل وتدا في غرفة مظلمة دهن الوتد بمادة سوداء بحيث إذا أمسك به الشخص ظهر السواد على يديه؛ فقال لهم ادخلوا واحداً واحداً للغرفة وليمسك كل واحد الوتد ويحلف بالله أنه لم يرم الناقة؛ فلما خرجوا رأي أيديهم ملطخة بالسواد عدى أحدهم الذي لم يقسم؛ مما يدل على أنه لم يلمس الوتد؛ فقال له أنت الذي قتلت الناقة فلا تجحد وفعلاً أقر بذلك.

وكان القضاة يستعملون ما يسمى "البشعة" وهي أداة من حديد تحمي في النار؛ فيمد الرجل لسانه وتوضح عليه بخفة؛ فإذا كان غير جان فلا تلتصق بلسانه وإذا كان هو الجاني فيجف لسانه من الهلع

وتلتصق به؛ لذلك جاء قولهم "جال الركية ولا نار ابن عمار[٧٢]" وهذه تستعمل عندما لا يقبل اليمين من المدعي عليه؛ لكن استعمالها نادر في وسط الجزيرة العربية بعكس بوادي الشام الذين يعتبرونها من القضاء لديهم.

أما حالات القتل فلا يلجأون للقاضي لأنهم يقتصون من القاتل بأنفسهم؛ فإن لم يدركوه اقتصوا من أحد اقربائه إلى الجد الخامس؛ لذلك يقولون [عليكم بمساكة الجنبية منهم] والجنبية سكين مثل الخنجر لكنها أصغر منه؛ إذ يمسكها الرجل في قبضته ويقولون له: عد عدك وأورد جدك. فكلما عد أباً أو جداً رفع أصبعه حتى يعد الخامس فتسقط من يده؛ وهذا الخامس هو الذي يؤخذ في الثأر؛ أما السادس فلا يلحقونه بشيء إلا نادراً؛ وكذلك في قضايا الشرف فإن من يتهم امرأة بالزنا على مسمع من الناس فلا بد من معاقبته؛ أما الإعتداء على شرف المرأة فهو غير وارد عندهم أو لنقل نادراً ما يحدث؛ لعلمهم أن أسرتها سوف يقتصون بقتله مهما كان؛ ولأن العرف القبلي يعتبر الفاعل مهدر الدم؛ ثم هناك عامل آخر يمنعهم عن الإغتصاب وهو الحرص على شرف أسرته الذي هو أهم شيء عنده.

(٧٢) حدثني الباحث فايز الحربي ان ابن عمار قاض من قضاة حرب . لكن هل هو المقصود هنا أم لا ؟..

من عادات وتقاليد البادية

هذا الفصل يجمع الكثير من العادات والتقاليد المتفرقة والمختلفة عند البادية؛ سواء الإجتماعية أو العرفية أو غيرها من حياتهم التي تحتم عليهم قواعد قبلية يجب عليهم وعلى غيرهم ممن يخالطهم احترامها.

وتسمى تلك العادات بمسمى "السلوم" بضم السين المشددة واللام؛ وهي أشياء متعارف عليها بين القبائل البدوية بشكل عام؛ مثل الجيرة والدخيل والمنيع والوجه والجاه والشرف والجار؛ وغير ذلك مما سوف نتحدث عنه في محله.

ولدى القبائل البدوية ما يسمى الثلاث المهربات؛ وتعني ضمان الجاني من المجني عليه ثلاث ليال تكون فرصة له ليحترز لنفسه؛ فيعطيه شيخ القبيلة تلك المهلة؛ بحيث إذا وجد بعدها في موطن القبيلة ينال عقابه؛ ويترتب على تلك المهربات أن يجلي الرجل أو الأسرة عن القبيلة إلى قبيلة أخرى ويجاورونهم ويسمون جالين؛ ولكن تلك الثلاث تكون بعد أن يجيء إلى قوم فيقول: أنا دخيلكم. فإن رضوا بأن يكون دخيلاً أي محمياً منهم فإنه في حرز وضمان تلك القبيلة التي

أدخلته ولا يحق لتلك إلا المقاضاة أو الإنتظار حتى تنتهي المدة؛ وصيغة الإيجاب عندهم: دخل الدخيل وسلم.

ولكل قبيلة مدتها التي تتراوح ما بين ثلاث ليال أو عدة أشهر؛ لكن أطول مدة تلك الحالة هي عند قبيلة عتيبة بالذات ومدتها سنة كاملة؛ وبعدها يكونون في حل منه؛ حيث يقول من أدخله عبارة تفيد عدم مسئوليته عنه وهذه العبارة هي قولهم : الوجه من الوجه أبيض. وتعني أني لست مسؤولاً عنك من الآن.

ونقل ديكسون عن أحد رجال مطير أن المدة تكون سنة كاملة عند مطير وعتيبة وقحطان؛ مع أني لم أسمع بذلك إلا عند ديكسون.

والدخيل له شأن عظيم؛ لأن من يتعرض له بعد أن يعطي الأمان يعتبر فعله انتهاكاً لحرمة الأمان ويسمون ذلك "سهج الوجه" أي انتهاكه؛ ويترتب عليه عقوبة تصل إلى القتل أيضاً؛ ومن العيب عند القبيلة أن يقتل المنيع(٧٣) عندهم؛ بل أن الرجل يجاهد عن من منعهم تحت عرف المنع وأساليب التعامل به؛ وهناك حادثة مشهورة بين الشيخ مسلط بن ربيعان وبين شليويح العطاوي حينما منع شليويح سبعين فارساً في موقعة

---

(٧٣) المنيع: هو من يلتجيء بك في المعركة مستسلماً لك.

طلال وأراد الشيخ مسلط قتلهم فأبى شليويح ذلك حتى سلموا[٧٤].

والوجه له حالات أخرى غير الدخيل؛ ومن تلك الحالات أن يأتي رجل إلى بلاد قبيلة فيأخذ الأمان من أحدهم لئلا يعترض له أحد في الطريق فينهب ما معه أو يقتله؛ ومن صيغ أخذ الأمان أن يقوم رجل من القبيلة بوضع ميسم على عصى الملتجيء أو يعطيه خاتمه ليبرز تلك العلامات لمن يعترضه ويقول: أنا في وجه فلان.

فإن اعترض له أحد من نفس القبيلة بعد علمه بوجه صاحبه فله العقوبة التي تراها القبيلة عرفاً. وهذه المسألة تكون درعاً لمن يطلب بثأر من أعدائه؛ فإذا وطئ قدمه فراشاً مفروشاً أمام البيت ولم يدخل البيت يعتبر كأنه قد دخل البيت واستجار بأهله؛ كما أن من أمسك برسن ناقة أو فرس يعتبر بجوار أهلها ودخيلاً عليهم.

وهناك الجار وتسمى تلك الحالة "الجيرة" وهي من الحرمات التي يدافع عنها البدوي؛ فلا يمكن أن يهضم حق جاره إذا كان من قبيلة غير قبيلته خاصة؛ ثم أيضاً هذا الجار من غير القبيلة إذا أغارت قبيلته على القبيلة

(٧٤) العبيد، محمد العلي، النجم اللامع، مخطوط.

التي هو مجاور لها وأخذت منها شيئاً فهو ضامن له عند قومه فيعيده؛ كما أن من سكن قرية وأغارت قبيلته عليها فعليه أن يعيد ما نهب أو سلب لهم.

وقد اشتهرت قبيلة سبيع بأنها من خير من تحترم الجار؛ فقد جاء في أمثال البادية قولهم عن سبيع "مدلهة الغريب" أي أن الغريب من كثرة حفاوتهم وإكرامهم له ينسى قومه الأقربين الذين جاء منهم إلى قبيلة سبيع؛ وهذا لا يعني أن سبيعا هي وحدها في هذا الشأن؛ بل كل القبائل العربية كذلك.

وقد عرف عن بعض شيوخ القبائل أنه كان يجير حتى الأرض التي حولها فلا يفزع صيدها ولا يعضد شجرها أيضاً؛ بل وصل الحد ببعضهم أنه يجير الحباري في أرضه فلا يصيدها أحد؛ كما روي ذلك عن أحد شيوخ بني خالد.

وهناك مسألة الخوي وهو نوعان؛ خوي يرافق في السفر؛ وخوي يؤخذ من قبل التجار بإيجارته لهم؛ ويدخل أيضاً من يسكن قرية من القبائل البدوية فيسمى خوي أو جار.

ومن عادات أغلب القبائل؛ أن من مشي معك سبع خطوات في طريق فإنك تعتبر مسؤولاً عن حياته وماله أيضاً؛ وهو في ضمانة من سار معه؛ ومن

القبائل التي تتشدد في تلك المسألة قبيلة عتيبة حتى جاء في أمثال القبائل قولهم "خوي عتيبي" أو قولهم "لزمة عتيبي" وهذا الشأن اشتهرت به عتيبة: وغيرها من القبائل العربية.

وقد اشتهر من الحواضر رجال لهم التزام بالخوي حيث أن أحد أهل الرس سافر للحج ومعه صاحبه الذي أوصته أمه برعايته لأنه وحيدها؛ فلما عادوا أصابه عارض؛ فقال أصحابه: دعنا نضع له مصاليب(٧٥) ونحمله لئلا نتعطل؛ فأبى وبقي عنده حتى شفي وقال:

خوينا ما نصلبه بالمصاليب

ولا يشتكي منا دروب العزاري.

وهناك الثلاث البيض وهي نوع من الأمان تستعمله القبائل بينها وتشمل

الطنب السابح: وتعني من أقام بيت الشعر بجوارك حتى ارتفع الطنب وسبح في الهواء؛ والطنب هو الحبل الذي يمتد من بيت الشعر إلى الوتد المغروس في الأرض.

والضيف السارح: وهو من استضافك وسرح صبحا من عندك فأنت مسؤول عنه حتى يبلغ مأمنه.

---

(٧٥) المصاليب: هو أن من كسرت ساقه أو جزء من جسمه يقومون بتمديده على خشب ويربط مصلوباً حتى يصلون به القرية أو المكان الذي يقصدون ويجدون طبيباً يعالجه.

والخوي: وهو من يمشي معك.
وقد تكلمنا عن كل واحدة منها.

أما مسألة البطن فهي شائعة لدى القبائل البدوية؛ بحيث إذا دخل بطن الرجل شيئاً من زاد قوم فإنه يعتبر تحت ضمانهم حتى يبلغ مأمنه؛ وأكثر من يستعمل هذه الميزة هم التجار المتجولون ببضائعهم بين البادية؛ إذ يأتي أحدهم إلى راعي أو راعية أغنام قبل أن يبلغ محل القبيلة؛ فيطعمه ولو فردة تمر ويكسب أماناً بذلك(٧٦).

أما الكرم عند البادية بوجه عام فهو أمر متفق عليه والنادر بخلا لا حكم له؛ لأن سجيتهم ووفرة الأنعام عندهم وكثرتها تشجعهم على الكرم أيضا؛ لذلك تجد أن أكثر من يأكل اللحم هو البادية؛ وإذا ما أبطأ عليهم اللحم صار أحدهم يفرك أنفه ويقول "عرام خير" والعرام هو حكة الأنف(٧٧)؛ وهو بذلك يعتقد أنه إذا حكه أنفه؛ فسوف يأكل لحماً هذه الليلة؛ وكذا قولهم : "كم من مرزوق نرزق على سبته" أي بسببه .

(٧٦) أورد البليهد في صحيح الأخبار مسائل ونعت له شخصاً من تلك العادات والسلوم.

(٧٧) كانوا يعتقدون أن من حكه أنفه فسوف يأكل لحماً؛ ومن حكته يده فسوف يستلم شيئاً مفرحاً؛ وبالعكس اليد اليسرى.

وحكايات الكرم عند عرب وسط الجزيرة كثيرة؛ لكن أهل الشمال يتفوقون على الوسط في تلك المسألة دون جدال؛ حسب المأثور لدى أهل الجزيرة العربية وخاصة قبيلة شمر وعنزة؛ وهذا لا يعني هضم غيرهم ففي كل خير.

حدثني رجل أثق في حديثه رواية عن أبيه قال: قال أبي رحمه الله: ذهبت من عالية نجد ميمماً الكويت للبحث عن مصدر رزق بعد أن أجدبت الأرض؛ وصادف أن كنت بلا دابة بل أسير على أرجلي؛ فاستضفت صاحب بيت من قبيلة [....] في الدهناء؛ وكانت حالته حالة فقر مثل غيره من الناس؛ فلما جئت إلى البيت والسماء تمطر والبرد قارس قال لي: حياك اله يا طرقي(٧٨). فإذا هو في خدر صغير ومعه زوجته وأربعة أولاد؛ فدخل إلي زوجته وسمعته يحادثها قائلاً: ألديك شيء نقريء الضيف؟ قالت لا شيء سوى حليباً حلبته من الغنم لنا وللأولاد وقليلاً من الدخن. فقال اعمليه لنا. فقامت بعمل العشاء وهو يعمل القهوة؛ فلما انتهى من عمل القهوة دخل للبحث عن تمر فلم يجد شيئاً؛ فأخذ يصب لي القهوة حتى تعرق جسمي وارتحت من بعد التعب؛ فقدموا العشاء بعد أن نام

(٧٨) طرقي : نعني الضيف أو عابر الطريق.

الأطفال عدا واحداً منهم؛ وأشفقت على حالة الرجل كيف يؤثرني على أطفاله؛ فأردت أن أسأله بقولي: كيف تحرم الأطفال وتعشيني؟ فقال: رزقك ورزقهم على الله. فلما جاء النوم قال نم معي تحت هذه الزولية. فجعلني أليه ثم الأطفال ثم المرأة؛ وكان البيت به معنا عدد من الغنم وهي كل ما يمتلك الرجل؛ فلما أصبحنا وشربنا قهوة الصباح وأردت مغادرته وهو يتبع أغنامه؛ إذ عرض لنا ظبي فرماه واصطاده؛ فالتفت إلي وقال: ألم أقل رزقك ورزقهم على الله؟ إرجع إلى البيت معي لنأكل من الظبي. وكنت والله جائعاً فرجعت وفرح الأطفال بهذا الصيد الثمين؛ فوالله لقد اعتبرت هذا الرجل مثل أخي لكرمه الذي جعلني أصله كلما بعد عني الوقت حتى مات وصار أطفاله رجالاً لهم قيمتهم.أ.هـ. وفعلاً هذه غاية الكرم ونهاية الجود والإيثار فعلاً.

وقد اشتهر في الجزيرة العربية رجال كثر من الكرماء مثل ابن مهيد الذي يقولون عنه "مصوت بالعشاء" ومثل هذال بن فهيد الشيباني الذي يفرح القرويون بنزوله قربهم؛ ومثل خلف بن ناحل الحربي؛ ومثل محمد بن فهيد الأسعدي راعي الأسياح؛ ومثل أبو صفره من الرخمان من مطير؛ وكذا حجرف

الذويبي الحربي [جده لأمه طلال أبو صفره الرخيمي] الذي حينما لامه قومه على الإفراط في الكرم حتى أهلك ما ملك قال قصيدة كلها قوة إيمان ومنها قوله:

يرزقني رزاق الهوايش بجحرها

\الا خايلت برق ولا هي بحايله.

وهناك الكثيرون غيرهم من الكرماء المعروفين.

وعند البادية السرعة في نجدة المستغيث؛ فإذا صاح الصائح أو الصائحة فإنهم يسرعون للنجدة حتى ولو لم يعرفوا من الصائح؛ ومن أمثالهم "ما صاح صياح إلا من العطب".

ومن عادات البدوي عزة النفس والترفع عن الدنايا؛ لذا فلا تجد الرجل يجادل الصبي؛ ولا يلاسن المرأة؛ لأن مجادلتهم لا تخرج بنتيجة ولا حجة؛ ثم هو يحترم أولياءهم.

ومن عاداتهم أنهم لا يضربون النساء؛ حتى لو غلطت المرأة على الرجل؛ فإنه يتصامم عنها إكراماً لأهلها وعشيرتها؛ حتى ولو ضربته فإنه لا يقتص منها؛ هكذا كانوا يفعلون؛ لكن الرجل يؤدب زوجته بضربها على أن لا يضرب الوجه لأنه منهي عنه شرعاً.

الزواج عند البادية

لا تقوم حياة الرجل السوي إلا بالمرأة؛ فهي حصن البيت وبيت الرجل وقاعدة حياته؛ وهي أم الأطفال الذين سيصبحون يوماً ما رجالاً.

والزواج عند البادية لا يقوم على الرضا مطلقاً؛ لكنه يقوم على رضي مبتور ومن طرف واحد هو الأب؛ الذي له الكلمة الأولى والأخيرة في تلك المسألة؛ وعندما يتقدم الشاب على طريق أبيه أو من ينيبه بالخطبة يقول أبو البنت إذا رغب الزيجة: جاتك كفاك الله شرها. أي جاءتك كزوجة لك.

ومهر المرأة البدوية غير مكلف؛ فقد يكون جملاً وقد يكون نقوداً غير كثيرة؛ وقد يكون ريالاً واحداً كما ثبت عنهم قولهم عند الملكة [عقد القران] فهم يقولون: أعقد على ريال وعلوم رجال. وقد يستعيضون عن كلمة اعقد ب "ملـــك".

وإذا كانت شخصية أم البنت أقوى من بعلها رد العريس إليها في شأن طلباتها من العريس ويسمونه "فن" أي شروط؛ كأن تقول أريد لابنتي حجولاً أو قلادة أو غير ذلك؛ ومن هذه النقطة تجحف الأم في حق العريس إذا كانت لا ترغبه؛ لكن من العيب عليه أن

يتراجع أيضاً؛ ولعل أهم شرط عند البدوية هو قولها: أريد لإبنتي حجة. أي أنها تشترط على العريس بأن يأخذها لمكة المكرمة للحج.

وكذا تشترط لها قعوداً لركوبها؛ أما غير ذلك فهو يعود للأم ذاتها التي يجيء العريس لها بعد الخطبة ويقول:- هاتي فنك. أي هاتي طلباتك؛ فتبدأ بقولها : أبا لبنتي.. كذا وكذا... وكلمة "أبا" تعني أريد.

ولكن هناك ظاهرة تستحق الإمعان عند البادية وهي أنهم لا يشترطون بيتاً منعزلاً للعروس عن أسرة الرجل.

تقوم الأم بتزيين ابنتها وإعدادها لليلة "الدخلة" فتذهب بها عادة إلى أقرب قرية لتشتري لها ما تحتاج من أمشاط للشعر وصباغ من المتوفرة في وقتها؛ وتحرص على شراء البخور الذي كان يأتي من عمان على شكل جامد من العطور العمانية التي أشهرها البخور الذي يحرق؛ ويسمونه مستكاء؛ وكذا الحناء وما يلزم للشعر من الدهون وغيره.

وأما الرجل عادة فلا يستعد إلا بقص شاربه وتهذيبه وكذا مساواة لحيته؛ أما الملابس الجديدة فلا بد منها أيضاً؛ وقد يجلس إلى أحد خلانه ممن سبقت لهم تجربة الزواج ليعطيه النصائح المجانية التي قد يستفيد

منها؛ والزوج في أحيان كثيرة هو الذي يقوم بالإعداد لحفلة العرس؛ فيأتي ليلة الدخلة منهكاً من التعب؛ وهذا عند البادية سابقاً؛ حيث يدخل في عراك مع زوجته تلك الليلة؛ وتخرج نتائج ذلك صباحاً؛ إذ يجيء في الغالب مشلخ الوجه أو الساعدين؛ نتيجة استعمالها أظافرها لئلا يقترب منها؛ لأنها لا تمكنه من نفسها في الليلة الأولى إلا بشق النفس! ومن العيب عند الفتيات أن تستسلم للرجل من أول ليله؛ بل أن التي لا تستسلم لــه تحس بالتفوق على مثيــلاتها؛ ويصبح حديث صويحباتها أيضاً؛ وقد انقطعت تلك العادة الآن لإرتقاء الثقافة.

وأعتقد أن لها الحق في تلك المعاملة للعريس؛ إذ أنه يأتيها رجل تقابله أول مرة وهي ذات حياء فتلجأ إلى ما تستطيع فعله.

وأحياناً تهرب العروس من الخيمة إذا غفل عنها العريس؛ ومن تفعل ذلك يطير ذكرها عند الفتيات مؤقتاً.

وفي الصباح يخرج العريس من خيمته ويحكم عليه القوم من ناحية السعادة أو عدمها؛ إذ يبدو ذلك على وجهه جلياً؛ ويتجه إلى مجلس الرجال حتى وقت الغداء؛ إذ يقف مرحباً بالضيوف للغداء؛ وهم عادة من

بقي ليلة البارحة لم يغادر "الفريق" إذا كان أتى من بعيد مثل أعمامها وعماتها والأخوال والقريبين منها أو منه.

ومدة الفرح أو شهر العسل كما يسمى لا يستمر طويلاً؛ لأن لها وله مشاغل كثيرة يجب إنهاؤها.

وإذا أردنا أن نصور ليلة الفرح كصورة حية؛ فإن النساء ليلتها معزولات عن الرجال؛ يرقصن استعداداً للعريس وفرحاً بالعرس؛ ثم هو فرصة للأمهات كي يعرضن بناتهن على أمهات من يريد الزواج حتى يتقدم للخطبة؛ وأما الرجال فهم في ساحة مبتعدة عن أماكن النساء ولديهم دلال القهوة ومدخنة البخور؛ التي تدور بينهم بدخان أزرق؛ حتى إذا صلوا العشاء وقدموا مائدة العشاء؛ فإن العريس يؤخذ وهم على العشاء إلى مكان العروس ويسمونه "الحجبة[٧٩]" ويكون دخوله عبر مجموع النساء الحاضرات؛ وأحياناً يزغرد النساء وأحياناً لا يحدث ذلك؛ فيمسك أبو العروس يده حتى يدخله الحجبة التي بها امرأة ممسكة

---

(٧٩) حدثني شيخ طاعن في السن قال: كنت ومعي اثنان نجوب قوماً؛ وصادف أن كان عندهم زواج؛ فجئنا إلى مخدع المتزوجة الذي يعدونه لها لكي تدخله؛ فتسللنا إليه؛ نريد أن نسرق شيئاً؛ فصاحت فجاء القوم وطردونا؛ فكنت أنا أسرع صاحبي؛ فتشاغلت القوم عنهما فما أبعدا هربت مسرعاً لجهة مغايرة فنجونا بأنفسنا مفلسين!.

بالبنت لئلا تهرب؛ فإذا دخل باركوا له وهم على عجل وانصرفوا وتركوا المهمة له!! ويستمر الرجال في مجلسهم مستمتعين بالشعر النبطي أو الحكايات؛ أما النساء فلا بديل عن الرقص الذي لا يصاحبه أية آلة من آلات الطرب؛ سوى أصوات الكبيرات في السن وهن يمدحن أهل العريس والعروس؛ بل يمدحن أهل كل فتاة ترقص في "الملعب"؛ وإذا ذهبت العروس إلى بيتها الجديد؛ فعندها تبدأ مسئولية جديدة؛ فهي أم وأخت وبنت وراعية بيت وأسرة؛ وللمرأة البدوية دور مهم في الحياة العامة سواء في السلم أو في الحرب؛ بل عرف عن كثيرات منهن أنهن يشاركن الرجال في الحروب؛ سواء على شكل مضمدات أو محفزات للفرسان؛ ولعلو منزلتها عندهم فإن الرجل ينتخي بأخته لا لسبب ولكن لأنه هو حامي كرامتها وشرفها فيقول عندما ينتخي "أنا أخو فلانة" حتى صار لكل شجاع عزوته المعروفة مثل أخو حسناء وأخو هملاء وأخو نوضاء وأخو بتلاء.. الخ[٨٠].

(٨٠) كان البادية يستعملون المرأة محفزة على الحرب؛ وذلك بما يسمى "عطفة" بكسر العين وسكون الطاء المهملة وفتح الفاء الموحدة وهي أن توضع فتاة جميلة أو بنت شيخ في هودج على جمل يساق إلى المعركة وهي تنتخي بالفرسان لكي تحثهم على الثبات.

وبرز من النساء شاعرات لا يمكن حصرهن في الشعر النبطي؛ بل في الحجة والمناظرة أيضاً؛ ومنزلة المرأة البدوية لا تقارن بغيرها من النساء لعلو شأنها وإكرامها عند قومها.

أشجار البادية ونباتاتها وحيواناتها

لكل بيئة أشجارها ونباتاتها التي تتميز بها؛ ولعل أكثر الأشجار في بادية نجد بالذات هي أشجار الطلح والسلم والأرطى؛ وهي أشجار ذات ظل ومرعى في نفس الوقت؛ فالطلح من أكثر الأشجار التي تجد الإبل فيها غذاء عندما يقل الربيع؛ وهي ظل وارف لعابر السبيل ولرعاة الإبل والأغنام أيضاً.

أما السلم فهو من الأشجار التي تعتبر من أهم ما ترعاه الأنعام بوجه عام؛ إذ أنه ينتشر في الأراضي الجبلية أكثر من غيرها فيكون على ضفاف الأودية مرعى جيداً؛ وحطباً لمن ينول ويبحث عن الحطب؛ لكن عند البادية ما هو أكثر إيثاراً للتدفئة من السلم وهو حطب الغضى والسمر والأرطي الذي يصاحبه دخان كثيف ورائحة جيدة؛ وكانوا يتخذون الدباغ من ورق السلم؛ ومن الأرطي يتخذ التجار الفحم الذي لناره لهب وتدفئة قويان.

وهناك السدر البري؛ الذي يستفيد منه البدو بشكل كبير؛ فيتخذ النساء من ورقه مادة منظفة لشعرهن وللغسل بوجه عام؛ وهو أيضاً حطب جيد يوقدون به؛ ويستخرجون عصيهم من أغصان السدر لإستقامته

وقوته؛ قــال شاعر يفخر بعصى معه وتســمى باكورة[٨١]:

باكورتي ما هي بمثل البواكير
متبصر حنايها مالها امثال
قطعتها من روضة أم العصافير
من سدرة كل بغاها ولا احتال

والغضى شجر ينبت عادة في الأرض الرملية؛ أو التي تغلب التربة الرملية عليها؛ وهو وقود جيد وملتهب؛ فكانت البادية تستعمله كوقود وهناك أشجار أصغر حجماً مما ذكرنا مثل العوسج وهو شجر شوكي مزهر ومثمر؛ إذ يجيء ثمره أحمر صغير الحجم ويشبه الطماطم؛ وكان أطفال البادية يلتقطون ثمره من الشجر ويمصونه مصاً.

وكذا هناك شجر الطرف؛ وهو شجر تأكله الإبل بديلاً عن الحمض.

وهناك من النباتات البرية الربيعية التي تشتهر بها نجد بالذات أنواع عدة منها ما يلي:

الشيح: وهو نبات شجري له رائحة جميلة يتخذون منه شراباً بعد أن يغلى مثل الشاي تماماً؛ والشيح مر

(٨١) الباكورة عصى يحز رأسه على شكل حرف يو بالإنجليزية؛ تستخدم عند قيادة الرحل؛ وأم العصافير روضة في الحمادة بالوشم تابعة لهجرة الداهنة الآن.

الطعم غير أن رائحته زكية؛ وتحبه الأنعام إذا كان أخضر في وقت الوسم.

أما العرفج: فهو شجيرة مثل الشيح لكن لونها مغبر؛ وأوراقها متفرقة؛ لذا يقولون في أمثالهم عن من لم يرتب شعره "رأسه مثل العرفجة" والعرفج تحبه الأنعام بوجه عام سواء أكان اخضر أم يابساً.

القيصوم: وهو شبيه للعرفج لكن أزهاره لها بريق جميل في وقت الوسم؛ وهو من النباتات التي تحبها الإبل بكثرة؛ ومنابت العرفج والشيح والقيصوم واحدة بل بعضها يكون متقارب مع بعض.

الرمث؛ وهو شجيرة لها عروق تبرز فوق سطح الأرض وهو من الحمضيات التي تحبها الإبل ولا تصبر عنها؛ وكذا هو وقود جيد للبادية خاصة عضد الشجر كما يقولون "وقدة نار على عضود رمث".

وهناك الأشنان: ويسمونه "الشنان" وأكثر المناطق التي ينبت فيها منطقة القصيم وخاصة أن هناك قرية ينبت حولها بشكل كثير هي قرية الشنانة ولعلها منسوبة لكثرة الشنان بها، ومن الشنان يستعملون الأدوية ودبغ الجلود؛ وكذا كمادة منظفة للدهون.

وهناك نباتات فطرية تنمو في الصحراء إذا جاء المطر وسمياً ومنها الكمأ ويسمونه الفقع أو الزبيدي؛

ولعل تسميته بالفقع لأنه يفقع سطح الأرض عندما ينمو كبيراً؛ والفقع عدة أنواع منها الخلاسي وهو الذي ليس بأبيض اللون أما الأبيض فيسمى الزبيدي؛ وهذا الكمأ ينبت عادة قريباً من شجيرة بحجم الكف تسمى الرقروق أو الإرقة؛ ومن أمثالهم "دور الزبيدي حول الإرقة"؛ أو "إذا لقيت الإرقة دور الزبيدي". لكن هناك فطريات قد تدل على الكمأ وهي صغيرة الحجم مثل بعرة الغزال تسمى الهبيري مفردها هبيرية؛ كما أن هناك نبات فطري يسمى العرجون وهو يأتي باسقاً وعالياً أقل من الشبر بقليل وله رأس مثل رأس المسمار أو المضلة؛ وهذا يشويه الأطفال إذا لم يجدوا الكمأ؛ ومن قولهم "إذا قمحت من الزبيدي لا تقمح من العرجون" وقمح معناها أفلس.

أما نباتات الربيع التي تنتهي بانتهاء وقتها فكثيرة منها ما يلي:

النفل؛ وهو نبات ينبت عادة في الرياض وله رائحة زكية خاصة قبيل طلوع الشمس وقبيل غروبها.

الشمطري؛ وهو نبات ربيعي له رائحة زكية تستعمله النساء لتجميل رائحة شعرهن؛ وذلك بخلطه مع بعض الزهور والأرياح.

الأقحوان؛ ويسمونه القحويان؛ وهي أزهار تنبت في الوسم ولونها يجذب الرائي ورائحتها زكية وتحبها الأنعام.

ولكثرة النباتات نورد منها؛ الربل والحواء والحوذان واليهق والقرقاص والحميض والحنوة والبسباس وعين الجمل ورجل الغراب والشقارى وغيرها من الأعشاب البرية.

أما حيوانات البادية فمن أهمها وأكثرها عداء لأغنام البادية الذئب؛ والذئب حيوان مفترس وبه أنانية أيضاً؛ فهو يأتي لقطيع الأغنام فيذبح الكثير؛ لكنه يحمل واحدة ثم يهرب بها؛ لذلك يحرص البادية على اقتناء كلاب الحراسة من أجل الذئب والضبع؛ ومن شدة حرصهم من الذئب صاروا يضربون به المثل على الحدة والنباهة والشجاعة فيقولون لمن به تراخ ونعومة "خلك ذيب" أي كن ذا همة وحذر مثل الذئب؛ وبعكس الذئب الثعلب الذي يصفونه بالمراوغة والدهاء؛ لكنهم يصفون به أيضاً الرجل الأناني الذي لا يوجد منه خير؛ أو ضعيف الهمة فيقولون "هذا حصني" والحصني تعني الثعلب؛ ويسمونه أيضاً "أبا الحصين"؛ لأن الثعلب إذا شبع دفن سؤره تحت الأرض حتى لا يأكل منه غيره.

وهناك الضبع الذي هو أم عامر عندهم؛ وهو حيوان مفترس؛ وإذا جاء للإنسان وهو نائم عض أصبعه؛ فإذا تحرك هرب وإن لم يتحرك أكله؛ لذلك هو يأكل الموتى بعد الحروب عادة؛ بل هو من أكلة الجيف خاصة.

وغير ذلك من الحيوانات الكثيرة التي يصعب حصرها.

بقي أن البادية يسمون النباتات التي لا زالت خضراء إما بقولهم عشب؛ أو قولهم قشع وخاصة إذا كانت شجيرة صغيرة مثل الرمث والشيح والقيصوم؛ وأما إذا يبس العشب وانتهى الربيع؛ فإن الأعشاب التي تبقى بعد تيبسها فيسمونها "حميس" والحمس عندهم هو شدة اللهب سواء من النار أو الشمس؛ فإذا التهبت الشمس صيفاً وأيبست العشب سموه حميساً؛ وهذا تأكله الإبل ولكنه يحتاج إلى الماء الذي تشربه بعده.

الأسرة البدوية والبناء الإجتماعي

يعتبر الأب هو صاحب البيت وسيده وصاحب القرار فيه؛ وبناء على ذلك يدور البيت حول الأب لأنه الركيزة له؛ ويلي الأب في القوة الأم التي هي في نظرهم الحنان والشفقة وعمد البيت؛ تدبيراً ووجهاً فيما يتعلق بإعطاء صورة عن البيت من الداخل لمن هو خارجه؛ فعليها مرتكز التدبير وإظهار الأسرة بمظهر مرض للغير؛ لذلك يجيء اختيار المرأة اختياراً صعباً عند أصحاب الهمم العالية؛ لأن ليس كل امرأة ترضيهم؛ وقد جاء في أمثالهم المشهورة "إذا بغيت تضمنها انشد عن أمها" أي إذا أردت أن تضم تلك المرأة إلى أسرتك فلا بد من معرفة أخلاقيات أمها وتصرفاتها؛ فكان الرجل يبحث لولده عن المرأة ذات العرق الطيب؛ والتي اشتهرت أمها بأنها امرأة تجيد إدارة البيت؛ وتلك يسمونها "ظفرة" وكان الخال مرتكزاً أيضاً لأختيار المرأة؛ فهم يعتقدون أن الولد يجيء على أخواله خلقاً وخلقاً أيضاً؛ ومن أمثالهم "الخال والد" أي أنه له جزء من الولد من حيث التكوين في الأخلاق أو

الخلق؛ وكان البادية سابقاً إذا تعرفوا على رجل قالوا له: من أخوالك؟ لأن الخال مهم، قال شاعرهم:

الولد وإن جاد جيده من خواله

وان تردي فاعرف انهم خايبيني

وقد كان بين البادية أنفسهم تمييز طبقي اجتماعي؛ بحيث أن بعضهم يأنف من الزواج أو التزويج لبعضهم؛ ومنه قولهم "ما هو من مجاوزنا" أي ليس كفأ أن نتزوج منه أو يتزوج منا؛ وذلك ظاهر بين شيوخ القبائل بالذات حيث يأنفون من تزويج غيرهم من بناتهم؛ مع أنه ليس بمحظور عليهم الزواج من بنات تابعيهم؛ والبادية يقولون عن المرأة أنها ماعون؛ أي أنها مكان لحفظ النسل؛ وكان التزاوج بين القبائل شائع مثل اليوم؛ فتجد الحربي والعتيبي والمطيري والقحطاني وغيرهم من العرب الخلص يتزوج بعضهم من بعض بالرغم من مقولتهم "البنت لأبن عمها" ويقولون عن المرأة التي تتزوج من غير عشيرتها "متزوجة من غريب عريب" ولذلك تجد أن هذا الرجل من قحطان له أخ من الأم من عتيبة؛ ودواليك؛ لأن النساء يربطن بينهم؛ ومن أمثالهم "النساء قلاعات" والقلع عندهم البعد هنا؛ إذ أنها مثلاً من مطير فيتزوجها قحطاني فتشبك الأرحام وهي بعيدة عن

قبيلتها؛ ويكون أولادها القحطانيون يحنون إلى أخوالهم بحكم الرحم؛ وقد عرف عن شيوخ كثر؛ أن أخوالهم من غير قبائلهم أو عشيرتهم الأقربين، فنجد مثلاً أن شيوخاً من الرباعين من عتيبة أخوالهم الهياضل من عتيبة؛ لكن عشيرة الهياضل ليست من القريبين للرباعيين؛ وكذا نجد أن الحمدة وهم من شيوخ عتيبة أخوال بعضهم من البقوم؛ وبعض آخر من الرباعين[٨٢] أو غيرهم؛ كما نجد أن الذويبي من حرب أخواله من الرخمان من مطير؛ وهكذا تشابك الأنساب بين العرب الخلص؛ لأن الشيخ إذا ذكرت له فتاة لها أب أو أخ فارس تقدم لخطبتها على أمل أن يأتي مثلهم منها؛ ولو لم تكن من قبيلته؛ والخال كما يقولون "جذاب[٨٣]" فكان بعض الفرسان والشيوخ يندم إذا عرف أن هناك من قبيلة معادية له يوجد فارس هم أخواله؛ لأنه يجيء مثله أو أعظم؛ وكما أن الأخوال لهم دور في نجابة الإبن فقد عرف عن بعض الأسر الشجاعة والرجولة وكل الصفات الحسنة؛ لكن من هم

---

(٨٢) أخوال الشيخ سلطان بن بجاد رحمه الله هم الرباعين؛ وأخوه لأمه هو الشيخ ذعار بن مشاري بن ربيعان رحمهما الله.

(٨٣) جذاب من جذب الشيء إذا قربه له؛ فكأن الخال يجذبه بصفة من صفاته؛ وأحياناً يقولون "الخال وال." أي أخ الأم كأب.

أخواله لا يكون شيئاً مذكوراً؛ وقد كان فارس معروف له بنت فخطبها أحدهم وجاءت بولد ليس في منزلة جديه؛ فقال جده لأبيه: أنتم ما جذبتم ابناخيكم؛ قال جده لأمه: الحمد رقدناه؛ ولو جاء مثلنا ومثلكم فمن يناطحه! ومعني رقدناه أي أخمدناه.

كما أن هناك أسراً خاملة يجيء من هم أخواله إما شجاعاً أو حكيماً أو أية صفة من صفات الرجولة مع معرفة الناس لخمول أخواله.

وتتكون الأسرة من الأب وأبنائه وبناته اللائي ينظر إليهن على أنهم لسن له وإنما لغيره؛ وينشأ الفتى على عادات أهله التي يربونه عليها؛ لكن أكبر من الأسرة العشيرة القريبة مثل قولهم ذوي فلان؛ قبل قولهم قبيلة بني فلان؛ فيكون الولاء موزعاً بين أطراف عدة منها الأسرة ثم الأقربين ثم القبيلة الكبيرة.

وشيخ القبيلة كان صاحب اليد المطلقة فيها؛ لكن هناك من يحد من تلك اليد المطلقة في القوم ويضطره إلى العقل والحكمة من فرسان قومه؛ إلا إذا كان الشيخ جباراً لا مثيل له؛ فهو الذي يفرض على قومه الديات والمعونات وكذا له ما يسمونه "العزل" وهو أن القبيلة إذا حصلت على إبل يأتي هو ويختار ما يشاء منها قبل قسمته؛ وهذا ما يسمى في الجاهلية بالمرباع؛ وللشيخ

الحق في تأديب من يخترق عرف القبيلة؛ بل يصل به الحد إلى أن يطرده من القبيلة وهو ما يسمى "الجالي" وهو من يضطر إلى ترك القبيلة إما بناء على طلب الشيخ؛ أو هرباً منه هو لكي يعود ويأخذ الثأر قبل أن يؤمن على الفاعل وأن يجد هو من يقول له: تراك مقروع[٨٤] عن فلان.

والجالي المظلوم عادة يجيء إلى أكبر عشيرته ويضع عند مربط فرسه ما يسمى بـــ (الذريع) وهو خنجر طويل أقل من طول السيف ثم يعود من حيث أتى؛ ومعناها أجعل لي ذريعة كي أعود؛ ويقوم من وضع الذريع عنده بالضغط على الشيخ بأية وسيلة يراها مناسبة؛ كأن يقول دع فلاناً أو بني فلان يعودون مالك عليهم من سبيل؛ وإن لم تفعل ستجلي عشيرتهم معهم؛ فإذا كان المتوسط من الفرسان أو الحكماء أو من لهم دالة على الأمير أجاب طلبه؛ والذريع لا يوضع إلا عند من له ميزة عادة.

وشيخ القبيلة عادة هو قائدهم في المعركة ولا بد والحالة كذا أن يكون فارساً؛ لكنه لا يستغني عن أراء

(٨٤) مقروع تعني ممنوع؛ وهو أن يضرب زيد عمراً؛ فيأتي زيد إلى شخص ويدخل عليه؛ فيجب على الشخص أن يأتي إلى عمرو ويقول له: تراك مقروع. لذا يجلي المضروب لكي لا يدخل في تلك الإشكالية ولتكون يده مطلقة في أخذ حقه بنفسه.

الحكماء والدهاة ممن يعرفون الحروب وأساليب التعامل بها؛ فهو يجمع قومه ويأخذ رأيهم واحداً واحداً في العادة؛ ثم يقرر قراراً من عنده إن لم يعارضه أحد؛ ونادرا ما تخرج القبيلة عن رأي شيخها إلا في بعض المسائل التي يرون أن فيها انتقاصاً وهضماً لرجولتهم وفروسيتهم فلا يرضون بأية حال من الأحوال.

وأما الفرسان والشجعان ورؤساء الأفخاذ فهم يلون رئيس القبيلة أو شيخها العام؛ لكن هناك ديمقراطية عند البادية وهي أن لا أحد يكره أحداً على شيء لا يرغبه مهما كان الظرف أو الشخص؛ لأن الشخص إذا ضغط عليه شيخ القبيلة فسوف ينبري من يدافع عنه من الرؤساء أو الفرسان حتى يعود له الحق مهما كان.

وعليه فبناء المجتمع في القبيلة هو الأب ثم الأسرة ثم العشيرة ثم الشيخ؛ وهكذا يكتمل بناء مجتمع كامل عندهم؛ لكنه مجتمع فيه طبقيات وتحالفات هي في حد ذاتها تمنع من الظلم الذي يقع على بعض الأفراد؛ ومن أمثالهم قولهم "لولا الحمايا أكل الذيب الغنم" أي لولا الحمية وحماية الراعي لأكل الذئب الأغنام.

والعشيرة الصغيرة قد تنقسم إلى أسر أو كما يسمونهم "حمايل" فتجد التنافس بينهم؛ لكن عندما يجيء غيرهم ليظلم أحدهم فسوف يقفون جميعاً ضده؛ ومنه

قولهم "أنا واخوي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب".

وعند البادية في التكوينة الإجتماعية من يسمونهم حلفاء؛ وهم من يأتون إلى القبيلة القوية ويطلبون الإنضمام إليها بحيث يكونون منها؛ وينطبق عليهم ما ينطبق على محالفيهم؛ ولا يقبل التحالف إلا من عرب خلص حتى يكونون مساوين لهم في الكفاءة؛ فإذا رضيت بهم القبيلة ذبحوا شاة تسمى "شاة الحلف" واصبحوا من تلك القبيلة مع ان جذورهم من قبيلة عربية أخرى؛ هؤلاء في التعامل والمعاملة لهم ما لغيرهم من قومهم ومعناه أنه يذيب المتحالف الجديد في القبيلة؛ والحلف أنواع منها ما ذكرناه آنفا؛ ومنها ما يكون بين القبائل بعضها للوقوف ضد قبيلة أخرى أو قبائل أخر؛ مثل حلف شبابة الذي يضم حرباً وعتيبة وزهران والشلاوى؛ وكذا حلف خندف الذي من أعمدته مطير؛ ومنه حلف لا يذيب المتحالف في القبيلة؛ حتى ولو بقي مع من حالفهم.

بقي أن نشير إلى مسألة عند المرأة البدوية وهي مسألة إعجابها بالرجل الشجاع؛ حتى يتمنى بعضهن أن يكون زوجاً لها؛ وهناك من هن بالعكس يرغبن في الرجل الجبان الرعديد الذي يمكن لهن أن يسيطرن

عليه؛ لأن الزوج السوي على الأقل سوف يكبح جماحها؛ وكثيراً ما كانت المرأة البدوية تضع كل ثقتها في الرجل الشجاع؛ لإسترداد حقها المسلوب؛ ومن ذلك أن فتاة من إحدى القبائل أغار فرسان على إبل ترعاها؛ فقالوا لها إرجعي يا امرأة إلى قومك.

قالت لن أرجع إلا أن يأتي فلان ليستعيد الإبل منكم؛ فضحكوا من ثقتها فيه وهو غائب؛ وما هي إلا برهة حتى جاء واسترد الإبل.

من أمثال وحكم البادية

يتضمن هذا الفصل بعض الأمثال والحكم البدوية الغريبة التي اندثر معظمها ومنها ما يلي:

أبشر بالماء ومخضخض الماء ونعول أبو زيد وعصى أبو سلمى: وهذا المثل يقال أنه من قول عزيز بن خاله حينما صاحب أبا زيد وأبا سلمي؛ فوردوا على قلتة بها ماء وهم بالليل؛ فكان فيها شيء يخض الماء؛ فهربا وترك أحدهما نعليه والآخر عصاه؛ فجا عزيز ونزل الماء فوجد وعلا في الماء يحاول الخروج ولم يستطع؛ فملأ القربة وأخذ الوعل والعصا والنعلين وقال مقولته تلك؛ ويضرب البادية هذا المثل لمن يرسل فيجيء بما أرسل من أجله؛ فإذا أقبل عليهم قال المثل أعلاه.

حال دون الضب أرنب : وهذا يضرب لمن وضع نصب عينيه شيئاً وركز عليه؛ لكن وجد ما هو أهم منه.

دبك خيل في قيعان : ويضرب مثلاً للرجل المهذار الذي لا يصدق.

خريش وطقت بعصا : الخريش هي الناقة التي بها خوف؛ فإذا ضربت زاد خوفها؛ ويضرب لمن يتأثر بأدنى شيء.

رأس ظبي ما فيه اعراش : وقيل رأس ضب بدل ظبي؛ والعراش هو اللحم الذي يؤكل بالأسنان مباشرة من عظمه؛ وذلك أن رأس كليهما خال من اللحم الذي يؤكل؛ فيضرب مثلاً لمن لا خير عنده.

من بغاه كله ضيّعه كله : بغاه تعني أراده؛ وتضرب لكثير الحرص الذي يفوته الأكثر.

من قال أنا ضيم الرجال يضام : ضيم تعني قاهر أو المسيطر على الرجال؛ ويضرب مثلاً للذي لا يرى إلا نفسه بغرور.

سلط على الظالم أظلم منه : وتعني أن الظالم لا بد أن يتسلط عليه أظلم منه.

كل أبخص بغدر داره : أي أن كل واحد هو أعلم بما في بيته؛ وتضرب لمن يزعم أنه يعرف الكثير عن غيره.

طول التوداه : التوداة حلمة ثدي الناقة ويوضع عليها خشبة صغيرة لئلا يرضع منها الحاشي؛ وجمعها توادي؛ ويضرب مثلاً للقصير جداً.

في ركني ويعركني : ركن زاوية البيت؛ والعرك هو الفرك؛ وتضرب مثلاً لمن جاء في بيتك وزعم أنه أهل له دونك؛ ومنه قولهم أيضاً **في حلال أبوه طالبوه.**

عطيتها العنان ولقمت يدي : العنان عنان الفرس؛ ولقمت أي عضت؛ ويضرب لمن تعطيه تنازلاً ويطالب الأكثر.

الطلق أوخي المربوط : وكذا قولهم **سعيد أخو مبارك**؛ ومعني الطلق أي غير المربوط؛ ويضرب مثلاً لتساوي الاثنين في السوء.

ما في الفار الطاهر كله: ويضرب كسابقه أيضاً.

وش الخنزير ووش مرقته: أي لا فرق بين لحم الخنزير ومرقه؛ ويضرب كسابقيه.

قال طلقها وخذ أختها قال الله يقلعها ويقلع أختها: ويضرب مثلاً لسوء الخيارين.

افتك من العيات بأنصاف مالك: العيات جمع عي وهو من لا يفهم؛ ويضرب مثلاً لتدارك اتساع المشكلة وبترها كلها.

لا تجي مع طريفاتها : ويضرب مثلاً لمن يتحايل فيقولون له لا تجيء مع الأطراف بل ادخل الموضوع مباشرة.

وش درى الناس انك أبو زيد : وأبو زيد هو الهلالي؛ ويضرب مثلاً لمن لا يعرفه الناس ويظن أنه معروف عندهم.

مثل الديك يذن لغيره : ويذن أي يؤذن؛ ويضرب لمن لا يستفيد من عمله.

ليا صرت خاسر كثر الترحيب : وتعني أنك إذا خسرت بذبح وليمة لأحد فكثر الترحيب والحفاوة به لأنك قد خسرت الذبيحة مسبقاً.

الرمح على أول ركزه : ويضرب مثلاً لمن بدأ منه شيء أول وهلة سواء خطأ أم صحيح

قال فريتها قال عرفت سنها : الفر هو فتح فم البهيمة لمعرفة سنها؛ فإذا فرها فقد عرف سنها. ومنه قولهم: قال بكر وإلا ثيب قال قدامك؛ أي هل هي بكر أم ثيب قال هي زوجتك وأمامك فأنت أعرف بها.

أقرد عيالك محسحس نارك : أقرد أي أشقى؛ ومحسحس أي من يحرك حطب النار حتى تنطفيء؛ يضرب مثلاً لكثير الحركة وقليل البركة.

وجه ابن فهره : ابن فهرة رجل لا يخجل؛ ويضرب مثلاً لمن لا يستحي مما يقول.

الولد عقب صياح أو نكاح : أي أن رجول الشاب لا تتبين إلا بعد الحرب أو الزواج.

وجهه وقفاه واحد : يضرب لمن لا يخجل ولا يستحي.

حاضر بحاضر ما بها تاخير : أو حاضر بحاضر عدانا ما ندانيها : أي أن الشيء يكون ممتعاً إذا كان في وقته؛ ومنه قولهم "كل شيء بوقته حلو".

ليا برق البرق عاين ثنايا خروفك : وأصل هذا المثل أن الذويبي أحد شيوخ حرب ركب راحلته ووجد خروفاً فأخذه؛ فكان ذلك الخروف جنياً؛ فكلما برق البرق ضحك الجني؛ فقال صاحب له ذلك المثل.

الخيل تعرف أطياز الركبه : أي أن الفرس تعرف قدرة الفارس على السيطرة عليها؛ ويضرب مثلاً للمتمكن من أمره.

الخيل عز للرجال وهيبه : وهو قول مأثور عنهم يدل على حبهم للخيل.

لا من المعزا ولا من الضان : يضرب لمن لا قيمة له ولا انتماء؛ ومنه قولهم أيضاً " **لوقي لا كلب ولا سلوقي**".

فلان بو : البو هو جلد الحاشي يحشى بالأعشاب أو التبن ويوضح عند أمه حتى تدر عليه عند حلبها ويضرب مثلاً للمتليء وهو أجوف؛ ومنه قولهم أيضاً " فلان خرب" أو "فلان دو بو".

مثل الدوكره : الدوكرة أصلها طائر غبي؛ فيضرب مثلاً لمن لا يعرف الأمور.

الذيب ما يهرول عبث : الذيب تعني الذئب؛ وهو عندما يرى فريسته يهرول لها؛ ويضرب مثلا لمن يهتم بأمر له منه مصلحة.

أضرب الذيخ يستأدب الفهد : الذيخ هو الكلب؛ ومعناه أضرب الضعيف يتأدب ويخاف القوي.

ما عقب الرغاء هدير : الرغاء هو صوت البعير في حالة استسلامه لمن يقوده؛ أما الهدير فهو غضبه وهياجه؛ فيقولون ذلك لمن يستأسد بعد أن كان خانعاً.

زين وقوف : أي جميل وهو واقف لا حراك ولا كلام له؛ يضرب مثلاً لمن مظهره أجمل من مخبره؛ وكذا قولهم "زين تصافيح".

لا تحدني على أقصاي : أي لا تضطرني إلى ما عندي من قوة.

وصلت لمس الخشوم : وتضرب مثلا لإنتهاء الصبر؛ ومنه أيضاً : ما عقب الحلق إلا اليدين.

حذفة شرود من بعيد : والشرود هو الخائف؛ وتضرب مثلاً لمن يبدي الشجاعة ولا شجاعة لديه كي يواجه وجهاً لوجه.

الدرق للصيد ما هو للرجال : الدرق الختل؛ ويضرب لمن يتتقى ويخادع.

في وجهي عسل وفي قفاي علقم : يضرب مثلاً للنمام المخادع الذي يتجمل أمامك وينم فيك إذا غبت عنه.

ما درى الذيب عن طقاع النعجة : وذلك أن الذئب إذا أمسك النعجة من حلقها وحملها صار لها ضراط؛ فلا يهتم به؛ ويضرب لمن يسب ويشتم لمن هو أرفع منه.

العب على الخبول بحب لحاها : أي إلعب عليهم وتحايل بتقبيل لحاهم لكي يصدقوك.

إن كان ما لك من يدينك مشرب فشربك على يدين الرجال هماج : الهماج هو الماء غير القراح؛ ويضرب مثلاً لمن لا يخدم نفسه بنفسه؛ بل يتكل على غيره في حوائجه.

ثوب العاريه ما يستر القفا : أي أن الذي ليس لك بل استعارة لا يدوم لك.

ما مع الماء مويهات : مويهات هو الماء القليل؛ ويضرب مثلاً لمن يقارن الكبير بالصغير.

الخبل لا حمر ولا اسمر وفعوله تدل عليه : أي أن الأخبل لا لون له لكن أفعاله تبينه.

ما أحد يحقر عمره : أي لا أحد يقر لغيره بانه أفضل منه.

عيادك يالرفلا كليه : الرفلاء عندهم تعني الخرقاء التي لا تجيد إدارة بيتها من طبخ وغيره؛ وإذا جاء العيد

فكل رجل يأتي بصحنه الذي طبخ في بيته؛ وهكذا كل القوم؛ فيأكل كل واحد من الأكل المجلوب؛ إلا أن بعضه لا يؤكل لعدم اتقان المرأة له؛ فيعود لها غير منقوص؛ ويقول الرجل لها؛ عيادك بالرفلاء كليه؛ ويضرب مثلاً لمن يصنع شيئا ولا يتقنه بل يتورط به.

عاقب الشتاء بزربولـه : الزربول هو الحذاء الشتوي؛ ويضرب مثلاً لمن تأتي منفعته متأخرة.

جمل محامل : أي صبور مثل الجمل الذي يصبر على الأحمال.

كل يجر النار لقريصه : يجر يزحزح أي أن كل شخص يهتم بنفسه أكثر.

بارد الماء سمينه : أي مثلما أن الذبيحة السمينة هي غاية المطلوب فكذا الماء البارد يشبهها.

أنا لك وإلا للذيب : يضرب مثلاً لمن يلتجيء فيقول تلك العبارة؛ ومنه قولهم "الذيب في القليب" أي أن الأمر خطير.

ما يعرف كيري من ميري : أي أنه مصمم الرأي لا يمنعه شيء؛ أو أنه يتعامى عن الأمر.

أترك الترك يتركونك : أي لا تثير الفتنة النائمة؛ بل دعها.

ما كل بيضاء شحمه : أي لا تغرنك الألوان فليس كل أبيض شحماً.

عشبة غار : ويضرب مثلاً للمترف؛ لأن العشب الذي ينبت في الغار لا تأتيه شمس ولا رياح.

ورع يلعب بقصباته : ورع تعني غلام؛ وقصبان تعني أمعاء؛ أي أنه جاهل لا يدرك المخاطر؛ بل يلعب بأمعائه.

كل عليه من زمانه واكف : الواكف هو الماء الذي ينقط من خلال بيت الشعر عند نزول الأمطار؛ ويضرب مثلاً أن كلا له مشاكله.

الرجال مخابر ماهم بمناظر : أي أن الرجل بمخبره وأفعاله لا شكله.

من أعلام البادية

الشيخ حجرف الذويبي:

هو حجرف بن عياد الذويبي الحربي؛ من مواليد البادية النجدية ومن أعلامها؛ ومن أسرة ذات رئاسة وشجاعة؛ وكان بيت أخواله من البيوت المشهورة بالكرم في مطير [جده لأمه أبو صفره الرخيمي][٨٥] وقد كان حجرف كريماً إلى درجة مزعجة لقومه الأقربين؛ إذ لامه كثير منهم على إسرافه في الكرم؛ وهو علم من أعلام الأدب الشعبي؛ فقد كان فارساً وشاعراً وكريماً؛ ومما يروي عن تمسكه بكرمه وذهاب ماله في سبيل ذلك المبدأ؛ أن حاول أقرباؤه أن يجعلوه يحس بضرورة حفظ المال الذي هو عصب الحياة؛ وكثر لومهم ولوم زوجته أيضاً؛ فخرج ليتنفس الصعداء في الصحراء؛ فرأى ثعباناً أعمى قد ركز جسمه كغصن شجرة وفتح فاه إلى أعلى؛ فجاء طير ووقع في فمه؛ فأكله وانسل إلى جحره بعد تلك الوليمة؛ فضحك حجرف وأخذ يفكر في كيفية رزق الله لذلك

(٨٥) أخبرني بذلك/ عبدالعزيز السابح المطيري.

الثعبان الأعمى الذي لا حول له ولا قوة؛ فقال قصيدة جميلة في ذلك المشهد ومنها:

أنا ليا ضاقت عليه تفرجت
يفرج لي اللي ما تعدد فضايله
يرزقني رزاق الهوايش بجحرها
لا خايلت برق ولا هي بحايله
ترى رزق غيري يا ملأ ما ينولني
ورزقي يجي لو كل حي يحايله

وتلك والله غاية التوكل على الله الرزاق ذي القوة المتين.

الشيخ راكان بن حثلين:

وهو ابن فلاح العجمي فارس وقائد قوم ونبيل من نبلاء البادية؛ أسره الترك سنة ١٢٧٧هـ وعاش مسجوناً في تركيا؛ وعاد بعد حوالي عشر سنوات إلى قومه؛ وقد فتن الناس بقصص الشيخ راكان وقوة إرادته وصبره؛ وقد وصف راكان رحلته على السفينة إلى تركيا وصفاً دقيقاً بقوله:

عقب المعزة صار لنا دراويش
الكل منا خبزته في يمينه
لا عاد لا قهوة ولا عاد به عيش
ولا عاد به قطحة خروف سمينه

وكان راكان مغرماً بقومه العجمان وديارهم؛ وحينما رجع من هناك غنى بقوله:

يا فاطري ذبي طوارف طميه
إلى زمي لك لون خشم الحصاني
خبي خبيب الذيب في جرهديه
لي[1] طالع الزيلان والليل داني
تذكر المشحون ديران حيه
ومسوا حبال اكوارهن بالمثاني
نبغي ندور طفلة عسوجيه
ريحة نسمها كالزباد العماني

وكان وصول راكان إلى جدة ومنها إلى حائل؛ وما تناقلته العامة أنه أخذ معه خويا من عتيبة؛ فلما سارا وأقبلا على نزل من البادية قال العتيبي: ترى عشانا الليلة عند أهلي. فجاءوا إلى بيت وتعشوا فيه. ثم أصبحوا وسافروا؛ فلما أقبلوا عصراً على نزل بدو قال العتيبي: ترى عشانا عند أهلي. فتعجب الشيخ راكان من هذا الرجل الذي له أهلان! فتعشى عندهم وساروا صبحاً؛ فلما قدموا على نزل بادية قال العتيبي مثلما قال سابقاً؛ فصاح الشيخ قائلاً بلهجة العجمان: الله يمحقك عتيبي ما أكذبك. فقال العتيبي: إن لي ثلاث

[1] لي: إذا وهي لهجة العجمان؛ وكذا بعض أهل العارض؛ أما غيرهم فيقول: لا بدى لي.

زوجات وكل فريق معه زوجه لي فمررنا بهم صدفة يا شـــيخ راكان؛ فســـار العتيـــبي معه حتى وصل حـــائل[٨٧].

وقد قابل الشيخ راكان حينما كان في البحرين الملك عبد العزيز وهو يافع؛ وقد امتدحه الشيخ لما رأي من نباهة الملك "الصغير في السن يومذاك" وتوفي الشيخ راكان بن حثلين في سنة ١٣١٤هـــ؛ وللشيخ راكان ذرية معروفة إلى اليوم.

الشيخ تركي بن حميد :

وهو تركي بن صنهات المقاطي من عتيبة؛ فارس وشيخ وحكيم وشاعر؛ وعليه فقد جمع رحمه الله المجد من أطرافه؛ وكان الشيخ تركي هو الذي اتكأ لقحطان في جنوبي نجد؛ وسجل ملحمة من الشعر الشعبي يسجل فيها بطولاته؛ فكان هو ونده الشيخ محمد بن هادي علمان برزا في منتصف القرن الثالث عشر؛ واشغلا الرواة بقصائدهما التي تفيض رجولة وشجاعة؛ قال عنه أبو عبدالرحمن بن عقيل "وتركي شاعر مقل لم يكثر من الشعر ويتخذه له حرفة؛ لأن هذا لا يليق بالزعماء والفرسان"؛ وأقول: كان أغلب شعر الشيخ

(٨٧) رواها لي عدة كهول من عتيبة بهذا السياق. ولا أجزم أو أنفي صحتها.

في الفخر ووصف المعارك التي خاضها؛ وله بيت شارد وهو قوله:

وأخير منهن ركعتين بالأسحار

لا طاب نوم اللي حياته خساره

توفي الشيخ تركي بن حميد رحمه الله سنة ١٢٨٠هـ؛ قتله مبلش بن جبريل من مطير.

الشيخ محمد بن هادي :

بن قرملة القحطاني؛ كان له دور مهم وواضح في أحداث نجد في منتصف القرن الثالث عشر الهجري؛ فقد كان زعيماً بارزاً في قحطان النجدية؛ وهو الذي كان بينه وبين الشيخ تركي بن حميد مساجلات رائعة من الشعر النبطي؛ وأخباره ترد متفرقة لا يجمعها كتاب خاص؛ وإنما تأتي عندما تذكر حروب عتيبة وقحطان في جنوبي نجد؛ وكان الشيخ محمد بن هادي هو الأقوى في جنوبي نجد قبل الدولة السعودية الثالثة؛ وكان لآل قرملة ولاء مستمر مع آل سعود منذ الدولة السعودية الأولى: ولم يكن الشيخ محمد بن هادي شريفي الميول؛ وهذا الموقف والقوة جعلت شريف مكة يطلب منه الحصان حرقان؛ الذي جاء طلبه عن طريق الشيخ تركي بن صنهات؛ ولكن رفض الطلب؛ومات الحصان وبقي صاحبه الذي قال "أدخل على الله ما

يفشح على ظهر حرقان راعي الطربوش" يقصد الشريف؛ وهذا يدل على عدم الإنسجام بين الشيخ والشريف يومها؛ ولم أجد شيئاً عن تاريخ وفاته رحمه الله.

الشيخ فيصل بن وطبان :

الدويش؛ وهو من أكبر شيوخ قبيلة مطير؛ عاش في زمني الدولة السعودية الأولى والثانية؛ وقد اشترك في حروب كثيرة آنذاك؛ وذكره ورد في أغلب التواريخ النجدية؛ وقرأت في مجلة الدرعية في أحد أعدادها نص رسالة موجهة منه إلى الباشا؛ وقد توفي الشيخ فيصل بن وطبان الدويش سنة ١٢٤٨هـ كما قال ابن بشر.

الشيخ مقبول بن هريس:

الشلوي؛ اشتهر الشيخ مقبول في أواخر القرن الثالث عشر الهجري؛ فصار نادرة في الكرم والشجاعة؛ وكثرت مغازية آنذاك؛ وأكثر مواقع الشيخ مقبول كانت مع عتيبة؛ بحكم قرب القبيلتين من بعض؛ واشتهر كرم الشيخ مقبول بين القبائل في نجد؛ حتى مدحه الشعراء بذلك؛ ومنهم الشاعر العتيبي بقوله:

يا راكب حمرا شحمها من الحول

منوة غلام جاذبه طيب جده

اسلم وسلم لي على الشيخ مقبول
شيخ الشلاوي اللي ورا الضلع قده
تلقاه في بيت كثير من الضول
مشيد كنه على فرغ جده
وإلا كما عد من البدو مدهول
هذا صدر مروي وهذا يمده[٨٩].

(89) العبيد، مصدر سابق.

الخاتمة

الكتاب في معظمه يتحدث عن حياة البادية قبل مجيء الملك عبدالعزيز آل سعود لتكوين وطن متحضر؛ وهذا الوطن اليوم هو مفخرة لسكانه جميعاً؛ فقد قام الملك عبدالعزيز رحمه الله ببناء الإنسان حضارياً حتى أصبح على ما هو عليه الآن؛ والبادية النجدية جزء مهم وكبير من منظومة سكان هذا الوطن؛ وحياتهم قبل التوحيد للوطن كانت حياة حروب وشقاق بينهم؛ مما يعيق الإستقرار والنمو معاً؛ وقد عرف عن البادية أنهم ممن يجيد فن القتال بحكم خبرتهم وتدريبهم على تلك الميزة، لذلك حرص الملك رحمه الله على إستغلال تلك الخاصية في زمن الحاجة لها؛ وهي أيام توحيد الوطن؛ فكان جيش الملك من الإخوان حوالي مائة وخمسون ألفاً من الجند[٩٠]؛ وهذه القوة البشرية أدت إلى إيجاد قوة مقاتلة مترابطة " الأمر الذي أدى بعد ذلك إلى تغيير موازين القوى في شبه الجزيرة العربية بأكملها"[٩١]؛ ليكون جيش الإخوان من البادية ذا مفعول قوي لصالح توحيد الوطن؛ ولولا هذا الجيش

---

(٩٠) حبيب، جون اس: الإخوان السعوديون؛ ترجمة دار المريخ بالرياض، ص ١٣٣، ط١.

(٩١) حبيب جون اس الإخوان السعوديون؛ ص ١١٧.

لاستغرق توحيد الوطن وقتاً وجهدا طويلين؛ فعلا لقد قدم البادية جهداً لا ينكر في سبيل توحيد الوطن مع الملك المؤسس رحمهم الله جميعاً؛ وقد قال محمد جلال كشك "لو سئلت عن أعظم إنجاز حققه ابن سعود؛ و.... وما هو العنصر الأساسي الذي قامت عليه انتصاراته؛ وما هي أكبر ظاهرة في تجربته تستحق اهتمام الدارسين؛ والمهتمين بالحل الإسلامي والمهتمين بمستقبل العرب والحل الإسلامي؛؟ وما هي القضية التي تعرضت لإهمال المؤرخين؛ ولأكبر حملة تشويه في تاريخ السعودية؛ لأجبت على ذلك بكلمة واحدة: "الهجر" أو "معسكرات الإخوان"(٩٢).

وفعلا كانت البادية في تلك المستوطنات البدوية جيش جاهز وخفيف الحركة ومتقن تماما لمهامه أيضا؛ فهم أصحاب سيوف لها ظل لا زال إلى اليوم يستظل به أبناء هذا الوطن؛ بغض النظر عن خلافهم مع الملك سنة ١٣٤٧هـ؛ ومثل هذا الخلاف حصل مع الصحابة والمسلمين الأولين قبلهم.

بقي أبناء البادية في الهجر بعد استقرار المملكة العربية السعودية؛ في حالة أمن واستقرار بعيد توحيد الوطن واستقراره أيام قلة الموارد؛ فقد ذهبت الشاة

---

(٩٢) كشك محمد جلال السعوديون والحل الإسلامي، ط٣، ص ٥٥١.

والبعير التي فرط فيها أجدادهم أثناء هجرتهم من البادية إلى المستوطنات البدوية؛ حتى لقد حدث جوع شديد اضطر أغلبهم إلى النزوح إلى الرياض ومن ثم إلى بيان؛ وكان نزوحهم إلى الرياض من أجل الحصول على الغذاء من مضيف " ثليم" الذي يقع في البطحاء الآن؛ وهو مضيف لتقديم الأرز والتمر للفقراء من البادية المنهكين الذين لم يجدوا ما يسد رمقهم أيام الجوع والمرض؛ فهم ليسوا أصحاب تجارة ولا صناعة؛ بل قوام حياتهم كان على الأنعام التي تركوها عند الهجرة.

واليوم لا يوجد من نطلق عليهم بادية حقاً؛ لأن الكل تحضر وصار مدنياً؛ بل صار التظاهر بالبداوة نوعاً جديداً من الترف؛ فصارت حيازة الإبل طرقاً لإبراز الثراء؛ ومحاولة العودة للجذور؛ حتى لقد وصل سعر البعير الفحل إلى مئات الألوف من الريالات؛ وحتى في الهجر التي كانت تفتقد لأبسط مقومات الحياة صار اليوم كل شيء متوفراً؛ وهذا ما نسميه تجاوزا البدوي الأخير؛ لأني أعتقد أن الرابطة البدوية القوية قد أنهكتها وأذابتها الحضارة التي شملت الجميع؛ بل أن التفكك العشائري بدأ واضحاً من خلال الحياة اليومية؛ لكن الشيء الذي لم يمت بالرغم من التحضر؛ هو

الإتكاء على إرث قديم لم يعد نافعاً ولا صالحاً؛ وقد صور مارسيل كوربرشوك ذلك السلوك الإجتماعي في هجر البادية بقوله "هكذا يجلس الرجال هانئين على البساط؛ تحت السماء المرصعة بالنجوم في وسط الصحراء يستحضرون أحداثاً وقعت قبل أكثر من مائة عام؛ كأنها وقعت يوم أمس؛ وكأنهم يعرفون أبطالها جميعاً معرفة شخصية؛ وكأن هذا كله ذو قيمة راهنة"؛ والحديث عندهم يدور حول القبيلة؛ ماضيها وأهميتها لتقسيم البدو حسب الأنساب" كما قال مارسيل أيضاً؛ وأقول تلك صورة قاتمة.

لكن يجب أن لا ننسى أن البادية اليوم لا زالوا يحتفظون بكثير من الأخلاق العربية الخالصة؛ مثل الكرم والعون للفقير واحترام الجار واحترام كبير السن؛ والمحافظة على الأخلاق الفاضلة مثلهم مثل كل سكان هذا البلد الأمين. ولله في خلقه شئون.

المراجع والمصادر

أعتمدت كثيراً على محفوظات شخصية قديمة من أخبار وعادات البادية النجدية التي عشت فيها؛ واستعنت بكثير من كبار السن؛ كما استعنت بشكل أقل على المراجع والمصادر المتوفرة مع قلتها؛ ولعل هذا أول كتاب توثيقي.

١ – البدو والبداوة	محي الدين صابر ومليكه، ط ١٩٨٦
٢ – مقدمة ابن خلدون	عبدالرحمن بن خلدون
٣ – عنوان المجد في تاريخ	عثمان بن بشر، ط وزارة المعارف
٤ – ما رأيت وما سمعت	خير الدين الزركلي، المكتبة الكمالية
٥ – عالية نجد	سعد بن جنيدل
٦ – النجم اللامع للنوادر جامع	محمد العبيد، مخطوط
٧ – عرب الصحراء	ديكسون، النسخة الإنجليزية
٨ – أصول الخيل العربية الحديثة	حمد الجاسر، ط دار اليمامة
٩ – الخيل	فيصل العلي، ط١
١٠ – تاريخ مكة	أحمد السباعي
١١ – حداء الخيل	أحمد العريفي، ط١

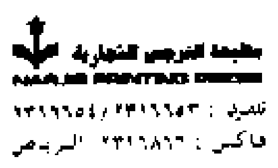
١٢ – صحيح الأخبار محمد البليهد، ط٢
١٣ – الشعر العامي بلهجة أهل نجد محمد بن عقيل، ط١
١٤ – من أخبار الخيل عند قبيلة حرب فايز الحربي، ط١

فهرس

المؤلف

محمد بن ناصر أبو حمرا.
ماجستير إدارة ١٩٨٣م من ARK.ST. UINV.
صدر له:
* الأسماء الشعبية القديمة/ طريقة نطقها ومعانيها.
* سيَـاحة الشقاء/ رواية/ فازت بالمركز الأول في جائزة أبها ١٤٢٢هـ.
* عتيبة / النزول إلى نجد والإستقرار فيها.

ص.ب ١٠٢٢١١
الرياض ١١٦٧٥


مطبعة النرجس التجارية
تلفون : ٢٣١٦٦٥٣ / ٢٣١٦٦٥٤
فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض

فهرس

